قصص قصيرة

الرسول الأخير

إنچي مطاوع

"كان الليل يفرش أستاره، يخفي خلف عتمته دقات قلب يوشك على التوقف، تنازعني الأفكار وتفترسني احتمالات كثيرة بالهزيمة، وصلت سالمة حتى نهر الفرات، كنت أتلفت حولي كل دقيقة لأتأكد من عدم وجود من يراقب، لكن فجأة..
انقشعت غيوم الليل عن سرية من جيش "أورليانوس"، جابهتهم، حاربت بقوة، لن أقع في فخهم، صرعت الكثير، لكن الكثرة تغلب الشجاعة، استطاعوا أسري، يا لفرحة قلبك "أورليانوس". شمت في وفي تدمر، كنت أعلم أنك ستخرب مملكتي أمام عيني، كنت أعلم أن انتقامك سيكون ساحقًا، يا للجحيم..".





٣٠
جنيها





الرسول الأخير

قصص قصيرة

إنجي مطاوع

الطبعة الأولى: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٢٢

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي: ١١٧٩٤
تليفون: ٢٥٧٧٥١٠٩(٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦(٢٠٢)

GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C.: 11794
Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: +(202) 25764276
website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الرسول الأخير

قصص قصيرة

إنجي مطاوع



الرسول الأخير

مجموعة قصصية

إنچي مطاوع

البداية

كل له بداية،

الحياة راقصة ماهرة؛

مغلفة بالذهب والحيوية والنفوذ،

فاقرأ وتمعَّن لأن ..

كل له نهاية..

فاحترس من دنيا عجوز ؛

خَرِفْة، قد تتملك زمامك،

لأن الحياة خدعة..

وموت الفجأة خدعتها الأثيرة.

كالخاس الإغريقي

"زيوس" العظيم امنحني بركاتك، لمَ لا يراعي الجميع الضغط الواقع على كاهلي اليوم؟!، هلت بشائر الصباح الأولى مع رياح عنيفة على غير عادة هذه الأيام لتثير الزوابع وتملأ آنية التقتير بالأتربة، مما اضطرنا للتخلص منها، لقد انقلبت أوعية عصر العنب كما لو أنها تتآمر علي مع ذلك العراف المجنون، حتى البراميل الخشبية التي عُصِرت وخمرت منذ ثلاثين يومًا وتركت لترقد وتعتق ورغم وزنها الثقيل سكبت، يا آلهة الأوليمب كيف تسمحين بحدوث هذا؟!

كنت أقاوم السقوط مغشيًا علي بسبب توقف قلبي عن النبض والجارية تصف هذه الكارثة، لو أردت كتابة مسرحية جديدة ما كنت خططت مثل هذا القدر من الحظ العاثر، جاءت ترتجف ووقفت أمامي تنتظر لحظة انقضاض غضبي عليها، بصوت متلعثم ألقت الخبر، ركض الجواد كما لو كان في سباق خيل، حاول العبيد إيقافه فكسر الحاجز مما تسبب في وقوع البراميل على الأرض ليراق كل ما فيها وتسقى أرض المعمل بدمائي، ليتني تركتهم يخزنوها في القبو بدلا من عنادي المرضي الذي أوصلني لهذه الخسارة الكبيرة.

أفٍ لهذا، قاومت شرودي قبل أن أصرخ في العبيد، بحق آلهة جبال الأولمب أجمعين أسرعوا، أريد هذا العنب معصورًا قبل أن تذهب الشمس إلى مستقرها، لن أموت اليوم يا أغبياء.

ضاع مجهود شهر، طار انتظاري هباءً وذهب إدراج الريح مأسوف عليه، كنت أراقب يوميًا العمال لأتأكد من إجادتهم أعمالهم وألا يتسببوا في كارثة تؤخر لحظة احتفالي بكأسي الأول من نبيذي الخاص، علي الانتظار حتى الغد لأكسر النبوءة المشئومة عن موتي، سأتجرع كأس وراء كأس من نبيذي وسوف أسخر من هذا العراف أمام الجميع، سأمحو اسمك من الوجود "كاليميرو"، سأطوح أمام عينيك

بنبوءتك عرض الحائط وأضيع هيبتك وتفاخرك الكاذب بقدرتك على التنجيم والتنبؤ بما سيحدث لأي منا.

سأشوه تاريخك العريق وأظهر كذبك، لن أتواني عن تأليف مسرحية تراجيدية تحكي عني وعن هذا المعتوه الذي تجرأ وحدد يوم وفاتي، تحدى سليل العائلة العريقة والكاتب المسرحي الكبير "كالخاس"، المحمي من قبل "أبوللو" إله الفنون، و"ديونيسيوس" إله الخمر، و"ديميتير" إله الزراعة والحصاد، فمن مثلي حريص على إرضائهم، إنه أنا الابن البار لجميع آلهة الأولمب، لا يعلم ذلك البائس أنني أقدم القرابين والمنح والعطايا دون حد إلى كل منهم لأنال رضاءه وبركاته، كيف يتجرأ هذا الحقير ويرمي شرر شعوذته حولي.

ذلك المتفاخر بلا داعٍ يبدو أنه اعتبر الأمر مزحة ثقيلة يرميها، ثم يتركني ويذهب لا أعرف إلى أين؟!، اختفى كي لا أستطيع مراجعته فيما قال ووصلني، سمعت أنه عاد إلى منزله اليوم، ذلك الملعون، ليت "هيدز" يجذبه من عنقه ويسحله على طول الطريق إلى الجحيم، ليته يتكرم علي ويأخذه في رحلة طويلة لا نهائية إلى قعر الجحيم هو وطالعه المشئوم..

لا داع لذعري سيمر الأمر كما سحابة صيف عابرة، غيمة دنست صفاء السماء فألقت بها الرياح خلف الجبال، نعم لا يجب أن أوتر حالي لأكثر من ذلك وأعطي للأمر أكبر من حجمه، يكفيني شهور الرعب والفزع التي مرت علي منذ الخريف الماضي في انتظار تحقق هذه الأكاذيب، بالتأكيد في البراميل بعض من بقايا النبيذ!!

نعم.. نعم، سأرسل جارية لتحضر ما يوجد في البراميل من بقايا، تجمعها في وعاء من الذهب ليلائم هذه المناسبة الكبيرة..

- "هيرا"... "هيراااااااااااااا"

أسرعت تلك الغانية تهرول كما سلحفاة؛ رغم جسد الغزال الذي تملكه، عندما لمحت وجهي الغاضب وعيوني التي تتقد نارا، ركعت تعتذر بأنها جاءت مع أول نداء ولكنها كانت بعيدة لذا أخذت بضعة لحظات لتلبي ندائي، تلك الخرقاء لا تعلم أن كل لحظة تمر محسوبة من عمري البائس، هل أطيب خاطرها وأقول لا عليكِ يا فتاة فغضبي ليس بسببك؟!

ارحمني "زيوس" من هذا العذاب، أمرتها أن تذهب لإحضار بواقي النبيذ من البراميل وألا تعود دونها..

أجابتني وهي مصدومة وكأنما أطلب منها إحضار نجمة من قبة السماء، البراميل كسرت ولم يتبقَّ منها شيء سيدي، في الغد يمكننا فتح البراميل المعتقة داخل قبو الكوخ الصيفي، أثارت جنوني لأطيح فيها بغضب وأنا أتوعدها بعيني، هل ترفضين طلبي وتنصبين نفسك وصية علي لتقولي افعل هذا ولا تفعل ذاك؟! هل جننتِ أيتها المخبولة؟!، اذهبي وأحضري ما طلبت في الحال، إذا عدتِ خالية الوفاض سأفصل رأسك الجميل هذا عن جسدك وأتنازل عن مغامراتي وصولاتي الليلية معه وأشرب من دمائكِ بدلًا من ذلك النبيذ الملعون، فهمتِ؟.

– نعم.. سمعًا وطاعة مولاي فهمت.. فهمت..

أجابت في خنوع وخضوع ثم اختفت من أمامي في الحال بما لا يتناسب مع رقتها المعهودة ولا رزانتها، كانت شغوفة بإثارة غيظ وحنق باقي الجواري ليقينها من مكانتها في قلبي، تعلم أنني ما كنت لأكسر بخاطرها أمام أيا من الأخريات، تلك الشهية ملأت ليلي إلهام وإبداع لسنوات فكيف لا أدع لها مجالا للتفاخر أمام صويحباتها؛ طالما لا تسقط في بحر الغيرة النسائية وأفعال النساء القبيحة بكثرة الحديث وإرهاقي بالطلبات..

تعلم إنني عاشق للنساء ولكنني في النهاية أعود إليها لأستقر داخل مملكة سحرها لأيام أو شهور، أعود لاكتشاف جغرافيتها كطالب انضم جديدا لمدرسة فلسفة

عسير عليه استيعاب مقرراتها بسرعة، أدرس نواميس كيان بض يتراقص بحرارة أمام ناظري، أكتشف ألوان قوس قزح من جديد داخل عينيها، أعبر البحور معها وإليها، أزرع الشمس بردًا والقمر دفئًا وبينهما نموت ونولد من جديد، معها أنسى متاعبي وألقي كل ما يتعب كاهلي عليها ثم أعود لممارسة مغامراتي في القنص والصيد من غابة الجميلات، آه يا قطتي الوديعة الجميل البريئة، حبيبتي ستمر الأزمة وأعوضكِ عن كل هذا الضجيج.

عادت مبتسمة مبتهجة، يبدو أن الحظ قد ابتسم أخيرًا ورضت عني الآلهة، كانت تسير بهدوء تتبختر كما اعتدتها في السابق، يسبقها عطرها الفواح، بدلت ملابسها بثوب شفاف يثير "زيوس" الجالس في ضجر على عرش جبال الأوليمب، اقتربت وبدأت تحرك النبيذ داخل الإناء الذهبي لأسمع رجرجته فتسقطت على مسامعي كما موج بحر منعش في ليلة صيف قائظ، بعفوية قربت أنفي لأستمتع بعبير يفوق عبير "أفروديت"..

عذرًا "افروديت" مسموح لي اليوم بكل شيء فها أنا على بعض لحظات من تكذيب نبوءة موتي، سأشرب من هذا الإناء حتى أثمل، بل سأشربه كله..

اليوم هو اليوم الموعود!!

لن أبقى مستيقظًا لأتأكد من إشراقة شمس يوم جديد علي وأنا على قيد الحياة!!

لن أخرج من سريري الدافئ كل ليلة، لأتجول في الطرقات كما المجاذيب؛ كي لا أعطي الموت فرصة قنص روحي وأنا نائم على غفلة مني، الآن سأشرب من هذه اليد البيضاء الرقيقة كوردة "ليليت"، الناعمة كما الحرير.

سأعب عبا من الشراب ثم أدعو أصدقائي لقضاء ليلة صاخبة، سأقدم لهم النبيذ والجواري والعبيد والغلمان، ستكون ليلة تساوي ألف ليلة، بعد قليل سأشرب ثم أبدأ في مسرحية جديدة بطلها، الإله "كالخاس" قاهر الموت، لكن لحظة..

ربما علي الانتظار قليلًا..

ناديت غاليتي "هيرا" لترسل في طلب ذلك المعتوه الذي تنبأ بموتي، لن أقترب من هذا النبيذ حتى يأتي وأجعله يموت قهرًا أمامي وأنا أتجرعه على مهل، اشرب منه بتلذذ وأرتشف منه بمنتهى اللذة.

لمحتها واقفة تراقبني في صمت فصرخت فيها ووجهي باش متفاءل بدعم كل آلهة السماء، "هيا حبيبتي أسرعي"..

اِنْحَنَت في دلال ومشت بخطوات مسرعة لتلبي طلبي، ما يعجبني في "هيرا" أكثر من جسدها الرخامي الناعم، ذكاؤها الحاد وتقديرها الجيد للمواقف، لم تنتصف الشمس في السماء إلا وهذا المأفون جالس أمامي داخل منزلي، يفصل بيننا طاولة لا تحتوي إلا على إناء النبيذ الذهبي وكأس واحد فضي، رحبت به مظهرًا شماتتي فيه، الغريب أنه أصر على عناده ونبوءته الملعونة، أعادها على مسامعي بشموخ جاموس بري.

بادلني نظرات الشماتة بنظرات شفقة واستهزاء، طلبت كأسا آخر وصببت له ثم لي، قربته من فمي، هذا اللون المميز..

الإحساس بالراحة للخلاص من بشاعة مطاردة النبوءة لي..

تلك الرائحة تأخذ بيدي لتجلسني وسط الآلهة في جبال الأولمب..

انتصرت على قدري!!

نعم لقد انتصرت على قدري إنه أنا "كالخاس"..

سيسمع الجميع عن أسطورة، الفنان والعبقري "كالخاس" بل الإله "كالخاس" إله الحياة الوحيد الذي انتصر على إله الموت ووأد محاولاته في سلبه روحه، يا لها من قصة لمسرحية جديدة، تلك الرائحة أعشقها، تناديني تعال "كالخاس" وأغرق في حتى أذنيك..

تعال وذُب في طعمي وغوص بين أمواج سكري..

انظر "كاليميرو" لمَ وجهك أصفر هكذا، هل أنت غاضب لفشل نبوءتك؟! سأشرب كأسي، وتموت أنت ونبوءتك وطالعك كمدًا، فلنعترف سوية أن الأمر مثير للسخرية حد الضحك، هيا اضحكوا جميعًا، الأمر يستحق، يا للجحيم، عليك اللعنة "كالميرو"..

بيدي سأسطر نهايتك الآن وأتركك تتخبط في بحر ظنون مخاوفك..

سيختفي مريدوك من حولك وسيلعنون فيك صباحًا ومساءً،

سيرقصون على جثتك المتعفنة المصلوبة على رماح نبوءاتك العمياء، سأشاركهم الرقص والغناء وسألعنك معهم، لا تغضب مني ولكنك تستحق مني هذا بعد الرعب الذي أحطتني به لشهور، يبدو الأمر سخيفا أعرف..

لم أضحك هكذا منذ سنوات طوال، لا أستطيع التوقف حتى عن الضحك..

يثيرني الأمر منذ البداية، يا إلهي العظيم، بعد لحظة أشرب كأسي وأنهيك للأبد "كالميرو" ألا يدعو الأمر للسخرية؟!، ستكون أضحوكة بين الناس، سيؤلفون قصص وأساطير عني وعنك وكيف خابت توقعاتك، وكذبت نجومك..

قلبي سيقف من كثرة الضحك، لا أستطيع أن أرفع كأسي..

"هيرا" ساعديني، هناك شيء متلفع بالسواد يجذبني صوبه،

قلبي سيتوقـ....

انتهت

– أوه "فيليب" لقد اعتبرتك صديقي.

تأثر الشاب الصغير من كلماتي ليجيبني في وجل وتقدير لقدر المكانة التي وهبته إياها:

– إن هذا لشرف عظيم منحتني إياه مولاتي.

ابتسمت في وقار دون أن تهتز في شعره، لأطمئن قلبه:

– تستحقه صديقي أزرق العينين، كنت دوما تسألني عن زوجي وحقيقة الأساطير المنسوجة حوله، الليلة سنتسامر حوله، سأقص عليك اليوم قصة زوجي الحبيب كما كنت تريد، اذهب أيها العفريت لإحضار مشروب ساخن واستعد لليلة طويلة.

انحنى أمامي كما النبلاء قبل أن يستقيم ويقوم بتحية عسكرية قائلًا:

– في لمح البصر، أمرك مطاع مولاتي فاتنة الشرق.

ضحكت وهو يحاول مغازلتي بهذا الغزل البريء، هذا الطفل يحاول مغازلة سيدة وملكة الشرق، ملكة تدمر العظمى، يا للأيام، هيئته مثيرة للضحك وهو يجري ويتحرك أمامي في سرعة ليجهز شرابا مكونا من أعشاب برية تهدئ الأعصاب، صب لكل منا ثم أتى يحمل الأقداح ويسير على مهل، تناولت قدحي ودعوته ليجلس جواري، ارتشفت القليل قبل أن أبدأ السرد في سعادة عن أحب شخص إلى قلبي:

– أتعلم "فيلب"، كان "أُذَيْنَه" زوجي الحبيب، فارس عصره، شريك مغامرة إقامة إمبراطورية تدمر قوية، بعده تكالب الجميع للاستيلاء على كرسي العرش وسلبي ملكي، أرادوا وضع أيديهم الملعونة والملطخة بالدماء على كنوز مملكتي، اشتهاها إمبراطورك الروماني لثرواتها، فتآمر مع الخونة لاغتياله في أُوج مجدة، أرادوا السيطرة على تدمر ملكة البادية، تلك العروس التي تزين جبين الصحراء، زهرة

الياسمين وسط أشواك الصبار، حلقة الوصل التجارية بين الشام والعراق عبر العصور، وبين البحر المتوسط وبلاد فارس والخليج العربي.

قاطعني في فضول:

– تعشقينها مولاتي؟ تتحدثين عنها كما لو كانت فتاة عذراء.

أغمضت عيني متذكرة "تدمر" وحياتي البائدة قبل أن أجيبه وأنا مغمضة العينين:

– هي كذلك، يا لها من ذكريات "فيليب"..

آه، مرت سنوات طوال وأنا أحارب لأحقق حلمي وحلم حبيبي، كنت لازلت صغيرة عندما انطلق فارسي النبيل "أُذَيْنَه" من البادية ليبارز بعقل ورزانة مفرطة إمبراطوريتك، في محاولة لإقامة دعائم إمبراطورية تدمر.

ثعلبي الماكر، الحذق، علمته البادية الحنكة والصبر، امتاز بشدة الفطنة والذكاء، مقاتل صنديد، يفخر بالقتال إلى جواره أعتى الفرسان، معتاد على شظف عيش وحياة الصحراء ومتاعبها، مع قبيلته بني "السميدع" رغم ثرائها، فهي صاحبة أقوى نفوذ على باقي عشائر البادية، ورث عن والده شيخ القبيلة طموحا واسعا، وعندما شب عن الطوق واشتد عوده؛ سعى لنيل عرش إمبراطورية تخصه وحده، مع الحفاظ على ثقة الرومان فيه.

قاطعني في غباء متسائلًا:

– هل قتل أخوه رئيس مجلس الشيوخ حينها ليستولى على الحكم بعدما أزاح ابن أخيه "معنى"؟

شعرت بالنيران تأكل قلبي لهذا الاتهام المجحف، أغمضت عيني لأتماسك لا أصرخ غضبى في وجهه، تصنعت الهدوء وأنا أجيبه:

– بل قل لعب القدر لعبته وأهديته فرصة تحقيق الحلم بموت أخيه على حين غرة، الظروف حينها كانت مواتية والحياة أهدته خيط البداية على طبق من ذهب،

جل ما فعله أن وثب على سدة الحكم وأزاح "معنى"، ساعدته إمبراطوريتك بتعينه خلفًا لأخيه رئيسًا لمجلس الشيوخ..

بهذا أعلن عن بدء فصل جديد في حضارة تدمر، بذكائه وحنكته وحدة وسع نفوذ المملكة على منطقة الأناضول حتى حدود شمال أفريقيا، وبسط سلطته الشخصية كملك، عبأ الصفوف لتحرير تدمر من تبعيتها لكم.

قاطعني ثانية ليريني أنه غير جاهل بزوجي:

– كان من الخبث أن أظهر الولاء علنًا والتمرد خفية.

فكرت أنه ربما عليّ الاعتياد على فضوله وتعليقاته الصبيانية، فابتسمت وأنا أفسر له:

– "فيليب" لقد هفت نفسه لحرية كاملة دون قيد أو شرط، صبت لإقامة مملكة مستقلة بذاتها تنافس الرومان وتقف على قدم المساواة أمامها، ألا تحب ذلك لمملكتك؟.

حرك رأسه كما طفل مطيع فعدت لسرد قصة زوجي:

– حدثت كل هذه الأمور قبل مقابلتي له، في هذه الأيام تعود على التنقل بين البادية والمدينة، لم يستطع التخلص حينها من حاجته للبادية ورجالها، ولا التخلي عن المدينة التي يستظل فيها بمجالسة القادة والشيوخ بما يسمح له بالتعلم وأحيانًا التدخل في شئون الحكم والحرب..

عاد لطبعه في مقاطعتي ليسأل في فضول يليق بفتاة:

– متى تعرفتِ به إذن؟

تنهدت مسترجعة شريط تلك الفترة في مخيلتي لأراه شابا وسيما يخطب ودّي:

– من خلال هذه الاجتماعات، عرفته عبرها، أخبرني من يراني أنا "زنوبيا" ابنة القائد "زباي" رئيس وقائد فرسان تدمر، ويستطيع مقاومتي؟

ضحك وهو يجيب:

– ومن يريد مقاومة مولاتي وسحرها!

ذلك الطفل لا يكف عن إبهاري بجاذبيته الفتيه، يحاول التسرية عني بلطيف كلماته، فأكملت دون الالتفات إلى إجابته:

– أخبرني أني من جذبته للمدينة، كان يسمعني دوما، "أنتِ ذات جمال باهر، جذابة الروح، فارسة عتيدة، مثقفة مطّلعة على الثقافة الرومانية، ثائرة وطموحة، شيقة الحديث تأسرين كل من تبادلينه الحديث برزانة أفكارك ورجاحة عقلك وقوتك رغم حزمك مع الجميع"، أوه "فيليب" ملك عقلي بحديثه هذا.

لكنه لم ينشغل بي عن حلمه ولأدعمه لإمبراطوريتك، فلقد كانت جيوشه خير معين لها في حروبها، مع حفاظه على تعمير تدمر، انتشرت في عهده أقنية الري بين الأراضي، أقام السدود لحجز المياه وتجميعها وتنظيم توزيعها، حفر أبار مياه الشرب والري وشيد الخزانات والأحواض ليؤمن احتياجات المملكه، زادت شهرة تدمر في زراعه النخيل وصناعة الفخار بفضله، استطاع إثارة إعجابي به كل يوم أكثر، فنشاطه متنوع في كل المجالات يعمر مدينته ويحارب جوار الرومان ويسعى لتثبيت أساسات ودعائم إمبراطورية تدمر.

لو ذهبت هناك وتجولت بين دروبها لرأيت بأم عينك بعضا من انجازاته الباقية، كان يثير فخري كوني أحد الثقات لديه.

انطلق "فيليب" مكملا فجأة:

– سمعت أن المبانيفي كل تدمر نحت عليها أعمدة وتيجان شبيهة بمعمارنا الروماني، والمنشآت بناها بالحجر الكلس الموجود في جبالكم، الأساسات بناها من مداميك الحجر الصلب لتظل محافظة على هيئتها لأجيال، أما الحوائط فمن طوب الآجر أو اللبن، السقوف المرفوعة بجذوع الشجر تطلونها بالكلس لتصمد وتتحمل جو الصحراء لديكم، كما تُزين حواف الجدران العليا بنقوش وزخارف من

الجبس، وتتوسط الباحات فسيفساء يبرع كل نحات في إبراز موهبته فيها لينال رضا الملك.

توقف عن الحديث وهو يلهث وكأنه كان في سباق معلومات، ربتت على كتفه وأنا أحرك رأسي موافقة، قبل أن أكمل له:

– نعم "فيليب" استطاع "أذينه" استعادة مجد بلادنا القديم، ناطح إمبراطور روما رأسًا برأس ليستقل بالحكم وبالسيادة على تدمر؛ مما أجج مشاعر البغضاء والحقد ممن حوله من أمراء لتحاك حوله المؤامرات.

في خضم حربه هذه توفيت زوجته الأولى وهي تلد ابنه الأكبر "خيران" "هيردوس"، حينها عرض علي الزواج، وافقت وقررت أن أصبح سندا يستند عليه، وأن أكون على قدر ثقته فأدعمه بكل ما أوتيت من ذكاء وقوة على تحقيق أحلامه.

أسرع يسأل:

– أقمت فرحًا مثل أفراح ألف ليلة وليلة التي نقرأ عنها في قصص الشرق؟

سعلت من شدة الضحك وأنا أحرك رأسي نفيا، تنفست في هدوء وأنا أحاول تشتيت انتباهي عن ألف ليلة وليلة هذه، وعدت لهدوئي وسيطرتي على حالي لأستطيع إكمال قصة زوجي الحبيب:

– سارت الأمور على نحو رتيب حتى وقع إمبراطوركم في الأسر، أشرت عليه باستغلال الفرصة بمساعدة الرجال في البادية وشن الحرب ضد ملك الفرس "سابور" واحتلال بلاده.

تركني على سدة الحكم مع نائبة "سبتيموس ورود"، أثناء خروجه لشن هجماته، انتصر في ثلاث جولات ورد ملك الفرس إلى ما وراء نهر الفرات، أصبح حاكم ولاية سوريه الفينيقية، بات بيدنا السلطة المدنية والعسكرية، صار إمبراطورا في حياة عين الإمبراطور الروماني، لذا بعد أن تحرر إمبراطوركم منحه كمكافئة لقب "محرر ومصلح الشرق كله"، لتتأسس الملكية في تدمر دون مقاومة من روما.

ابتسم الجندي الصغير وهو يعلق:

– رجل عبقري ليتني أملك ذكاءه، أعتذر عن المقاطعة مولاتي، أكملي من فضلك.

تنفست في بطء قبل أن أكمل في لامبالاة:

– واصل حربه وانتصاراته على الفرس، استولى على عاصمتهم "طيسفون""، ليصير "ملك ملوك الشرق"، كل هذه الفتوح وطدت حكم مملكتكم في الشرق، فلم يجد الإمبراطور "غاليانوس" حرج أو غضاضة في الاحتفال بهذه الانتصارات المتتالية، متفاخرًا بالغنائم المرسلة إليه والأسرى خاصة السبايا، فمنحه لقب إمبراطور، ورتبة القائد العام للجيوش الرومانية في سورية، كان يخبر الجميع أنه لولا ملك تدمر الذي تحمل مسئولية الإمبراطورية وتولى سلطات الإمبراطور أثناء أسره لضاعت هيبة دولة الرومان إلى الأبد، بفضله لازالت الإمبراطورية قائمة وقوية لذا حفاوة به سك نقودًا تحمل صورة "أُذَيْنَه" وخلفه أسرى فرس.

انطلق الفضولي يقاطعني ثانية:

– سمعت عن هذا، أوه عذرا لساني ينطق دون إرادة مني فأنا متحمس جدا لهذه القصة، عفوك مولاتي.

أخذت نفس عميق وأخرجته بتؤدة قبل أن أكمل ببعض من الضيق انتاب صدري لهذه المقاطعات التي لم أعتد عليها فترة ملكي لتدمر:

– عفوت عنك، في العموم مولاي الحبيب، ملكي وإمبراطور حياتي لم يهتم بكل هذا، فهدفه أكبر وأعظم من ذلك، تصرف كما يليق بإمبراطور وواصل زحفه ليقوم بحملات سريعة كانت كلها موفقة، تحوطها بركات الآلهة، انطلق كما فرس بري حتى عبر نهر الفرات وفك حصار مدينه "إدسا"، استعاد مدن "نصيبين وكارهاي" ووصل حتى حدود دولة الفرس ليحاصر عاصمتها مرتين ثم قرر أخذ فترة هدنة وأن يعود إلى مملكته تدمر والى أحضاني.

حينها ما كان يقلقنا أحيانًا هي الوشايات التي تصل إلى مسامع إمبراطور روما بأن "أُذَيْنَه" يسعى لإزاحته عن عرشه، لقد اشتهر ملكي بأنه أقوى متمرد وثائر على الرومان، لكن ما كان يخرس الجميع حتى الإمبراطور شخصيًا هو انتصارات "أُذَيْنَه" وقوته وجيشه الكبير، حتى أعلنت إمبراطوريتك أنه شريك في الحكم على منطقة الشرق الواسعة، حينها احتفل ملكنا "رأس تدمر المعظم" بانتصاراته وبقرب تحقيق حلمه الكبير في حكم مملكة تدمر مستقلة قوية تنافس إمبراطورية روما، لقد أصبح أخيرًا ند ينافس ندا، احتفل وشارك ابننا الكبير حيران "هيردوس" لقبه الخاص "ملك الملوك" ليكون ظل وظهر يحمينا في تحقيق طموحنا اللامتناهي في توسيع رقعة سيطرة مملكة تدمر.

توسع حلمنا يا "فيليب" وكبر فأقنعته بالاستيلاء على كل أنحاء سورية، قوى جيشنا ودعمه ومده بكل ما يحتاجه من مال وعتاد وذخيرة بالإضافة إلى الرجال تحت قيادة ابن أخيه "معنى"، وبدأ في إنشاء مجلس سيناتورات تدمري، تحول إلى شوكة تؤرق نوم إمبراطوريتك، خاصة بعد أن أخرج من جيشه فرق الجنود الرومان، ليثير فزع إمبراطورك فزادت حدة اشتعال الضغائن، ارتفعت ألسنة اللهب من بين الرماد، أثار الرومان فتكالبوا عليه وبدأت الخيانة الكبرى، تلك المرحلة التي يبحث فيها عن شخص كما الفأر، يتميز بالجشع والطمع بدرجة كافية تتيح استغلاله..

تنهد حارسي في آسي وهو يضيف:

– عيب السياسة، اللعب بقذارة، ليتكم تتحاربون بشرف.

أغمضت عيني بعدما عاودني شعور الخنجر المغروز داخل صدري، نفس ما مررت به ليلة مقتل زوجي، زفرت بقوة قبل أن أكمل في وهن:

– "أُذَيْنَه" المبجل" ملكي المعظم، أُغتِيل على يد مجموعة خونة من رجاله، أثناء عودته من أحد حروبنا المتتالية على مدن ما بين اللاذقية إلى حمص، وفي الطريق إلى مدينه "كيدوكيا" لقتال القوط هُوجمت الوليمة التي أعدها لجنده، قُتل

غدرًا مع ابننا الأكبر "حيران" وحرسهما الشخصين، تم القبض في الحال على هؤلاء السفلة الملاعين وسلبني "موينيوس" أو معني كما ينادي نفسه أغلب الوقت "معنى" ابن أخيه حقي في الحكم ونصب نفسه ملك تدمر، وتقربًا من الإمبراطور الروماني أرسل إليه المشاركين في الاغتيال ومن قبض عليهم للاشتراك أو الضلوع بأي شكل في هذه الجريمة الشنعاء للتحقيق معهم.

لكن قلبي كان يتوجس خيفة، لم يطمئن لما يقولونه، أرسلت عيوني وسعيت خلف الحقيقة؛ وحينها تأكدت من الإشاعات التي طالت إمبراطور روما بالتدبير لهذه الجريمة النكراء، لقد دعم بسهولة حكم "معنى" وعين ابني رئيسًا لمجلس الشيوخ، مع تأكيده على أن من فعل هذه الجريمة سينال عقابه على وجه السرعة.

علمت من عيوني المنتشرة داخل قصر الإمبراطور؛ أن المتهم "روفينوس" وهو شخصية غير معروفة، مجرد مجهول، حقير، يعاني النقرس ولا يستطيع الحركة بسهولة، وبكل صلف اتهم ابني "وهب اللات" والذي من فرط حبه لوالده سمى نفسه "أُذَيْنَه الثاني" بأنه هو من تأمر معه على القتل.

حينها أرسلت إلى الإمبراطور أن هذه مهزلة غير مقبولة، فأعاد التحقيق معه، فأنكر ما قال سابقًا وعاد يخرف بأن ملكنا المقبُور يستحق القتل لمعاداته للإمبراطورية الرومانية ومحاولته الاستقلال عنها وتقويض دعائمها، تبجح بأنه يستحق القتل ولو كان الأمر بيده لقتله مرات ومرات فلقد حاول فرض نفوذه وسيطرته على الإمبراطورية الرومانية والاستيلاء على أملاكها ولولا عدم سماح صحته لقتل ابني الأصغر أيضًا..

اكتملت المهزلة بنصحه الإمبراطور "غاليانوس" بإرسال من يحضر رأس "وهب اللات" دون أن تتسخ يداه، اعتقد أن هذه النصيحة نالت استحسان وإعجاب الإمبراطور ليتخلص منا.

– كيف تصرفتِ في هذه الكارثة؟!

تمنيت لو بإمكاني قطع رقبته ليكف عن مقاطعتي ولكنني بصعوبة تغاضيت عن الأمر وأكملت:

– آثار حنقي ثرثرته المخبولة تلك، كما تفعل أنت الآن، تمنيت لو مزقته نسائر بأسناني، يتجرأ على سادته ويتركه الإمبراطور يتنفس، قررت بأن علي معاقبة الجميع على هذه المهزلة، سعيت خلف الحقيقة بصبر حتى تأكدت شكوكي والشبهات الحائمة حول "معنى" بأنه هو من دبر المؤامرة، ونصب الفخ، لتحقيق مجده الشخصي، ذلك البذيء سيئ الخلق والأخلاق.

أخبرت ولدي "وهب اللات" فسعى إلى الانتقام لروح والده الطاهرة، رغم صغر سنه إلا أنه ذو شخصية مميزة، إرادته قوية، يملك من الصلابة والثبات ما يجعله يمر بأسوأ وأحلك المواقف الجسام، دعم موقفه انتماؤه لقبيلة قوية وذات نفوذ وأموال وثروة ساعدته على تجميع القبائل حوله، لكن القدر كان له كلمة أخرى..

انطلق الغبي مقاطعًا: ماذا حدث؟

زفرت بقوة وأنا أنظر نحوه في شراسة أسد يستعد للانقضاض على حمامه، وأكملت وأنا أجز على أسناني:

– لقد تآمر على القاتل " معنى" أصدقاء الأمس من أنصاره وتألبوا عليه، حاصروه ثم قتلوه، لم يمر عليه سوى أشهر قليلة وقتل، انتقمت السماء منه فمن قتل يقتل ولو بعد حين، وحينه كان قريبًا جدًا، لم أحزن عليه فلقد كنت قد أصدرت قرار بإعدامه لكنه فر، شككت للحظات أنه بريء، لكن فراره أثبت جرمه عليه، أخيرا نلت ثأري ممن أشاع أنني أنا الزوجة المحبة الثكلى، الملكة "زنوبيا" بقوتها وهيبتها الطاغية ولأني الوصية الشرعية على العرش؛ مَنْ تآمرت على زوجي وأهدرت دمه، بعدها تفرغ "وهب اللات" لاستعادة سيطرته على عرش والده المنهوب.

أشار بسبابة كفه اليمني، والتردد باد على وجهه يريد مقاطعتي، زالت تكشيرة وجهي وذهب غضبي منه، فابتسمت لأنه أخيرا تعلم الاستئذان، نظرت نحوه دون رد فعل آخر ثم حركت رأسي موافقة، لينطلق كمن كان مقيدا لشهور داخل بئر عميق:

– كيف صرتِ الملكة إذا كان ولدك هو الملك؟

ضحكت لسؤاله السخيف فهو يثبت أنه لم يكن يركز في حديثي بالقدر الكافي، لم أشأ إطالة الوقت بعدما انتابني الملل منه فأجبته ببساطة:

– لأنه كان قاصرًا تم توليت أنا جميلة جميلات العرب ملك تدمر، لم أفرح بالأمر طويلا، أفجعتني الحياة ثانية واغتيل ولي العهد بعد والده بعام، حاولت قبر حزني في قلبي لأثبت جدارتي بالحكم، حاولت تعمير تدمر لتعيش أزهى سنواتنا، لكنكم لم تتركوني لشأني ولمملكتي.

كنت كلما خطوت خطوة للأمام لمعت تدمر في عيون أعدائها أكثر، فيزيد جشع الطامعين في اقتناص فرصة القفز على كرسي العرش وإزاحتي عنه، حينها بدأت حربي معكم..

لهذا الجزء من القصة ليلة أخرى "فيليب" فأنا أرغب في النوم حاليًا، طابت ليلتك. ذهب ليقوم بأي شيء بعيدًا عني، عاد لحراسته ربما؛ تركني لأجتر الذكريات وأحداث حياتي، أنا..

أوريليا زنوبيا زباي، ملكة تدمر.

انتهت

"قوة المشتري"

كيف وصلت لما أنا فيه الآن؟!

يا للسخط، ليت الدنيا تبتهج في وجهي ثانية..

يليق بي لقب ساحرة الشرق، سمراء، سوداء العينين، أسناني لؤلؤ مصفوف، صوتي قوي يبهج قلب من يسمعني ويثير فيه الاحترام والتوقير، أثق بذاتي وبأنني الأجمل بين نساء النبلاء، أفوق كليوباترا جمالًا وعقلًا ودهاء وفصاحة لسان وحدة نظر في الحياة والسياسة.

يومًا ستسود تدمر بحكمي العالم، سأكون إلاها يتحاكى عنها اليونانيين والرومان ويطلب التدميرين منها العفو والغفران، تهيأت للملك منذ طفولتي، استفدت من ثقافة أسرتي الهيلينيه، تعلمت الآرامية، واللاتينية والإغريقية والقبطية.

درست تاريخ الشرق والغرب خاصة الإغريق والرومان في مركز العلم مدينه الإسكندرية، تدبرت قصة حياة كليوباترا فسأكون وريثتها أحقق المجد والسلطان بحذق ولن اسمح لأي من كان بإخضاعي أو إذلالي.

فكيف وصلت لهذا المكان البشع؟!

أتذكرين "زنوبيا" أولى خطواتك!، نعم يا نفسي أذكر كيف سعيت حينها لتحقيق طموحي بالتعرف على شخص ثائر، ساعٍ للسلطة مثلي، اتفقنا على هدف وحلم واحد، تاج إمبراطوري يزين رؤوسنا..

"أذينه" محارب وفارس مغوار، قوي الشكيمة، نحضر اجتماعات مجلس الشيوخ سوية، نخرج في رحلات للصيد والقنص سوية، ندعم بعضنا البعض، حينما توفت زوجته وعرض الزواج علي لم أمانع فهذه فرصتي.

عشنا معًا حياة مليئة بالمغامرة، انتصارات وأهداف تتحقق ببذل الجهد والتدبير الجيد، لقب زوجي العزيز بـ "ملك الملوك"، "سيد الشرق الروماني"، حكمنا سوية "سورية" وسائر آسيا الرومانية.

حكت بالعدل لذا كان الجميع يبجلني، أخرج على حصاني مرتدية عمامة وتاج يزين رأسي، ثوبي الأرجواني المرصع بالجواهر والأحجار الكريمة كما قياصرة روما، يثير غيرة سائر النساء، حافظت على رعاية شئون إمبراطوريتي فأحبني جميع أفراد الشعب، بنفسي أراقب تنفيذ ما أمر به من مشروعات وإصلاحات في سائر مدن تدمر فوثق الجميع في قدراتي وخشوني في نفس الوقت.

كل شيء يسير على خير ما يرام رغم مجاهرتنا في أغلب الأوقات بأحقيتنا في الاستقلال عن الإمبراطورية الرومانية، حتى امتدت يد الغدر في يوم كئيب الأحداث، واستولت على روح مليكي وإمبراطور حياتي "أذينة" بعد وليمة مع قادة جيشه وجنده في الطريق إلى مدينه "كيدوكيا" أثناء قتاله للقوط.

ذلك الخبيث قليل الأخلاق والأدب "موينيوس" الملقب بـ "معنى" ابن أخ فقيدي الغالي دبر المؤامرة الخسيسة لإزهاق روحه.

وبكل بجاحة نصب نفسه ملك تدمر وهو يعلن الخبر المشئوم، باركته روما وعينته في "مجلس الشيوخ"..

وضحت الرؤية باع دماء الملك مقابل كرسي العرش، صغيرة كنت وولدي "وهب اللات" قاصر، طالبت بحقي في العرش لأكون الوصية والملكة نيابة عن ولدي، أمرت بإعدام الخائن والاستيلاء على جميع ممتلكاته لصالح خزينة المملكة.

يا إلوهيم لقد صرت ملكة الملكات، أقابل الوفود في الديوان الملكي يزين رأسي العمامة الكسروية والأزياء الرومانية، كنت أزرع في مخيلتهم هيبتي وأفرض احترامي بقوة شخصيتي، لم أنسَ تدمر لذا سعيت إلى ازدهار وإعمار المملكة..

وطدت حكمي على تدمر والبادية، أقمت الثغور على ضفتي نهر الفرات العظيم، بنيت المسارح وقاعات الألعاب، ربيت صغاري على أن يكونوا ملوكا أبا عن جد، أحضرت معلمين من مختلف الأنحاء لتعليمهم لغة روما وآدابها وتاريخها رغم

بغضي لسيطرتهم على بلادي، نميت فيهم صفات الفروسية والشجاعة، حب المغامرة والسعي بقوة لتحقيق طموحاتهم.
لم أنسَ يومًا حلمي و"أذينه" بتحول تدمر إلى إمبراطورية تضاهي إمبراطورية روما، جميع الأباطرة وصلوا للحكم بقوة نفوذهم السياسي والعسكري، صعدوا من قلب اللاشيء ليصيروا كل شيء، لذا جهزت الجيش بكل ما يحتاجه، وتجهزت لغزو العالم..
لم ألقب بـ "الملكة المحاربة" من فراغ، كنت أتحرك بين الجنود مرتدية خوذة "أبوللو" على ظهر حصاني العربي الأصيل، ألهب حماسهم وأقوي عزيمتهم وشكيمتهم، كنت أخرج من معركة إلى أخرى منتصرة، حتى تمت لي السيادة على آسيا الصغرى..
أوووه، كنت قائدة عن حق.
أذكر كيف وصلت بيزنطة لأقتل القائد هيراكليون، وفتحت الإسكندرية منبت العلم والعلماء لأحكم مصر، أسميت مملكة تدمر "الإمبراطورية الشرقية"، ملكت أقوى الممالك, ضَعف الإمبراطورية الرومانية وانشغالها بأعدائها أتاح أمامي العديد من الفرص.
لازلت أذكر وجه الإمبراطور "أورليانوس" عندما اضطر للتفاوض معي لتأمين حدود إمبراطوريته المهددة، حاول إغرائي بوقف زحف جيش تدمر مقابل الاعتراف بألقاب ولدي "وهب اللات" وامتيازاته وصلاحياته الملكية، حينها كان ردي زيادة حملاتي التوسعية.
خليفته الإمبراطور "أورليان" أيضًا حاول مهادنتي وإظهار اللين معتقدًا سذاجتي، اعترف في البدء بنفوذي على مدينة الإسكندرية، لقد استشاط غضبا عندما صككت النقود في "أنطاكية" و"الإسكندرية" وعليها صورة "وهب اللات" وصورة الإمبراطور السابق "أورليانوس" وطالبت بالاستقلال عن روما.

صحيح بدأت الأمور بعدها في التدهور..

كان للأمر مذاق خاص، يكفيني أنه ولضعفه أظهر عداءه بالتدريج، كما حية تترقب حتى تحين لحظة انقضاضها على فريستها، عليه اللعنة، وصل الزحف والاستيلاء على مدن آسيا، واستولى على الإسكندرية خلال عام واحد مستغلًا قتل "وهب اللات".

وقتها كان يتملكني الحزن ويسرق أفكاري، يتركني مهلهلة الإرادة، لكنني لم أسمح لنفسي بالسقوط، ولا له بقيادتي، لن أسمح لـ "أورليانوس" باستغلال لحظات ضعفي وانهزامي بموت ولدي، زدت تجهيز الجيوش لتوقف جيشه قبل أن يصل تدمر.

كان النصر حليفه لسوء حظي، تحالفت الظروف والأقدار مع غريمي..

استولى قائد جيوشه "بروبوس" على جنوب المملكة في أفريقيا، كنت كمن بلغت الستين لا أقوى على فعل شيء، حتى أنني خسرت معركة "أنطاكية"..

اضطررت للانسحاب إلى تدمر، فاستغل "أورليانوس" الفرصة وانتهز حالة الضعف التي تكتنف الجيش وقادته، حاصرني داخل تدمر.

الرب كان معي فما حمى المملكة من الانهيار، تجهيزي الأسوار المنيعة وتعبئة كل برج على السور بثلاثة من آلة قذف الحجارة "النار الإغريقية" كنا بغمر الحجارة بالنفط ثم نشعلها "المنجنيق"، وعدت الجند بمزايا وهبات عظيمة حال نصرنا، علينا طرد الغزاة عن أرضنا، لن نكون عبيد وسبايا لهؤلاء الرومان.

ويا لأسفي، يومًا بعد يوم كان موقفنا يضعف أكثر، أرسل "أورليانوس" معاهدة سلام تضمن خروجي سالمة والحفاظ على تدمر من التدمير والسلب والنهب، رفضتها وبدأت في تحصين المدينة أكثر وجهزت لخطة عكسية تساعدني على الالتفاف حول جيشه والقضاء عليه.

حان موعد المعركة الفاصلة، حرب في معركة حياة أو موت، كان يوم خانق للأنفاس، عواصف وزوابع حارة، ملابس القتال تقيدني، كنت أشعر بالموت ينتظر لحظة طعن قلوب جندي، حشرجة أنفاسي داخل صدري تضايقني..

يومها كان حصاني الأصيل يقف بثبات رغم اضطراب فارسته، كان العناد افيونتي لاحتمال كل هذه المصائب المتتالية، استلهمت الشجاعة والصبر والقوة من أرواح أسلافي..

قررت حينها بأنني لن أهزم كما كليوباترا لأكون غنيمة حرب ويقتلني القيصر ثم يدعي انتحاري، نفذت المؤن ولن تحتمل المدينة حصار آخر ليوم إضافي اليوم هو يوم تطلب فيه المساعدة ممن لن يعترض.

كان الليل يفرش أستارة يخفي خلف عتمته دقات قلب يوشك على التوقف، تنازعني الأفكار وتفترسني احتمالات كثيرة بالهزيمة، وصلت سالمة حتى نهر الفرات، كنت أتلفت حولي كل دقيقة لأتأكد من عدم وجود من يراقب، لكن فجأة..

انقشعت غيوم الليل عن سرية من جيش "أورليانوس" جابهتهم، حاربت بقوة، لن أقع في فخهم، صرعت الكثير لكن الكثرة تغلب الشجاعة، استطاعوا أسري، يا لفرحة قلبك "أورليانوس"، شمت في وفي تدمر كنت أعلم أنك ستخرب مملكتي أمام عيني، كنت أعلم أن انتقامك سيكون ساحقا،

يا للجحيم..

فكرت حينها؛ على الهرب بأية طريقة، عندما وصلت خيمته كانت مشاعر الفشل تقتلني، لكن كبريائي منعني من إظهار ذلك، لن أسمح له باشتمام رائحة ضعفي، لن ادع له الفرصة لاستغلال سقوطي بين يديه أسيرة..

كان عليه أن يدرك مع من يتعامل، خططت لأن يرى المرأة التدمرية، سرت بين الجند بثقة وشموخ، حتى أدخلوني إلى خيمته.

أذكر كيف حاول التصرف كملك، مرحبًا بكلماته:

– تشرفت بلقاء ملكة الملكات، من سخر مني شعب روما بسببها، ليتهم كانوا يدركون أنني أحارب شخصية قوية وامرأة رمز للبسالة والنضال، رغم كرهي لتمردك إلا أن علي الاعتراف بقوتك وتميزك مولاتي.

نظرت في عينيه في شموخ وتحدي وأجبته بثقة:

– أنا الإمبراطورة زنوبيا ملكة تدمر وإمبراطورية الشرق الرومانية يسرني أن تعترف بقوتي لكنك تريدنا تابعين لكم، ترانا مجرد يد تبطش بها، تغتالون الأمل في الاستقلال عن إمبراطوريتكم لتجريدنا من كنوزنا وثرواتنا، لن أرضخ ولن أقبل بأيه شروط غير منصفة لعرشي.

يا للسخرية، غضب صارخًا:

– لا توجد شروط أنتِ بين يدي أسيرة "أوريليا" أم أناديك "بان زباي" أم تفضلين ذلك الاسم العربي "زنوبيا"؟! أحضرتك لأبلغكِ تحويلك إلى محاكمة داخل مدية "حمص" خلال يومين.

زمجرت في وجه مكشرة عن أنيابي ليدرك مع من يتحدث:

– هل ستحاكمني على رغبتي إلقاء نير عبوديتك والتخلص من بطشكم وقهركم الجاثم على صدورنا؟

انتفش كطاووس وهو يتلو الاتهامات، محاولة التمرد على الإمبراطور وسلطة روما، وإثارة الفتنه والتسبب في قتل خيرة شباب روما، نادى الحراس لأخذي إلى خيمة خاصة وأكرم ضيافتي فأنا أولًا وأخيرًا ملكة تدمر.

يومها توعدته بألا يهنأ بهذه اللحظة كثيرًا، كنت أنوي الهرب والانتقام منه، أجريت المحاكمة بعد ثلاثة أيام، حكموا بإعدام عدد من كبار قادة المملكة ومستشاريها، أما أنا..

أما أنا فقد اكتفوا بنفيي إلى روما، وكأنهم يعلمون ما في سريرتي وبأن هذا قمة الإذلال والانكسار من وجهة نظري، سيأخذونني غصبًا لأعيش في كنف من حاربتهم وأبغض سيطرتهم..

اقتدت كما العبيد، رغم أن أصفادي ذهبية إلى إحدى ضواحي روما "تيفولي"، جعلهم "أورليانوس" يعدون هذا المنزل البسيط في "تيبور" لأسكنه حتى نهاية حياتي، الأيام تمر كئيبة، سقط نجمي من عنان السماء لتدهسه الأقدام.

ما كسرني أمامه، وأضاع كبريائي رغم ادعائي الصمود، تسخيفه من آرائي ومعتقداتي ونضالي، ثم أجهز عليّ..

بتزويجه بناتي لبعض من رجاله المقربين، حمدت الرب على أنهم من أشراف روما على الأقل ولم يلق بهم لأراذل شعبه ليلهون بهن..

يا إلوهيم لمَ تركتني وحيدة؟

أين ملكي وهيلماني؟

أين شيوخي مستشاري في تدبير أمور القصر..

أتسكن الملكة زنوبيا هذا المنزل الخرب؟

أين بنات الأشراف ممن كانوا يحفون من حولي كما الفراشات؟

أين جواري المنتشرات كلما تحركت أتعثر بهن؟

أين فرسي وجنودي؟

أين أموالي وجواهري وثيابي الفاخرة؟

هل غضبت لأنني أزاحمك الإلوهية على الأرض؟

أين ذهب عزي وثرائي ونعيمي ومتاعي؟

ضاع هيلماني وبهائي، لم يتبقّ غير ذكرى امرأة ثارت على الإمبراطور فأرغمها في النهاية على الخضوع، ذلّت بعد عز..

ما جدوى الحياة بعدما ضاع كل ما كنت أناضل للوصول إليه؟

ما جدوى إيماني؟

- "أوه فيليب" أفزعتني.

أخرجني من شرودي صوت "فيليب" الخادم هو يلقي السلام، عسكري روماني، معجب بالمرأة التي هزت عرش الإمبراطورية، يأتي كل فترة ليطالبني بتناول طعامي، أعتقد أنه يخشى على أسيرته الموت في فترة خدمته..

ولد قصير بعيون زرقاء صافية لكنه خفيف الظل، يضحكني وهو يحاول إقناعي بتناول لقيمات تقيم عودي، يتصنع الجدية والصرامة وهو يعترض على هيئتي.

- سيدتي تنحلين كل يوم أكثر، ستموتين جوعًا؟

يحزن عندما أجيبه:

- آوه "فيليب" ليت الموت يزورني لكنه يأبى مرافقتي.

منذ أن سمحت له بالاقتراب والجلوس برفقتي، وهو يعاملني كأنه صديق مقرب، ينصحني:

- استمتعي بحياتك سيدتي لازلت صغيرة ولازالت هناك فرصة لاقتناص السعادة.

لم أسمح له هذه المرة بالاسترسال، لكن قررت أن أجعله يحضر لي وسيلة خلاصي من هذا الآسر..

كان ينوي الخروج فناديته ليعود جواري:

- "فيليب" أريد منك طلب صغير لكنه مهم جدًا، هل تنفذه لي؟

كنت أعلم أنه سيوافق، لا يستطيع رد أي طلب لي، لم يخيّب ظني أظهر فروض الطاعة والولاء فكل ما أطلبه مجاب دون نقاش، لكن بشرط ألا أطلب ما يغضب إمبراطوره:

- أمرك مطاع مولاتي دوما.

ابتسمت وأنا أتخيل وجه الإمبراطور العظيم عندما يصله الخبر، سيغضب ويثور لأنني تمردت على حكمه، ولأنني استطعت الخلاص من قيده، ثم يرتاح للخلاص مني..

تنفست في هدوء قبل أن أخبره بمرادي في صرامة:

- "فيليب" أحضر زجاجة كبيرة من زيت القرنفل ولا تخبر أي إنسان مهما كان.

بوغت بطلبي وسألني في وجل: لماذا مولاتي؟..

امتعضت مظهرة استيائي من فضوله؛ لكن لم أرغب في إثارة فضوله فقد ينقلب علي ويفشل مخططي..

فأجبته في هدوء وبصوت رقيق فيه عمق أنثوي:

- سأصنع عطرا خاصا مشتهرة به تدمر منذ الأزل، اذهب "فيليب" ولا تعد إلي من غيرها.

انتهت

"بيدي لا بيد عمرو"

منذ أيام ناديت على جاريتي لتحضر كاتب الديوان الملكي ورسول المملكة، هناك عرض مفرح على "جذيمه الأبرش" تلقيه اليوم، فزعت مكررة "جذيمة" ملك الحيرة، قاتل سيدي "عمرو"، كيف ستفرحه مولاتي؟!، اصفرّ لونها أكثر عندما أخبرتها:

– سأعرض عليه الزواج ليأتيني بقدميه حتى باب بلاطي، سأجعله يندم على قتل والدي، سأبرد ناري، وأريح جثمان أبي داخل قبره، سأرسله إلى الجحيم، بيدي سأنتقم لروح بطل أبطال تدمر من ذلك الخسيس ملك الحيرة.

حاولت "شيرا" إخباري أن هذا سيزيد الخلافات بين مملكتنا ومملكة الحيرة؟! واستعجبت هل سيصدق العرض؟، أجبتها، هم من بدأوا الحرب، والخدعة ستنطلي عليه لأنه يتنشق شوقًا لحكم المملكتين معًا، سأعرض عليه مساعدتي في إدارة شئون المملكة والتوحد بالزواج، أدرك أبعاد الموقف وسأجعله يندم.

الغبي وافق، الأحمق طمعه سيقتله، اليوم موعد عرسي، عروس سأزف لكن ليس إلى عريس بل سأزف إلى الشرف والعزة، اليوم سيصل "جذيمه" وسأقتص لوالدي الملك وأرفع رأسي عاليا، سأسقي أرض بلاطي العطشى بدمائه، سأدع دماء قاتل أبي تسيل كما نهر ثم تدوسها الأقدام..

ناديتها:

– يا جارية، ألبسيني ملابس الحرب فاليوم سيشهد أحداث معركة عظيمة الشأن، عطريني وانثري الورود على طول طريقي إلى قاعة الملك، أحضري سيف والدي به سأطفئ لهيب الثأر المتقدة داخل صدري، سأتشفى برؤية ذلك القاتل مجندلا على الأرض تدوسه الأقدام.

ذهبت إلى قاعة العرش وأمرت الحراس أن يدعوني مع ملك الحيرة وحدنا فلدينا حديث هام، أدخلوه البلاط كما ملك ملوك الأرض، عندما رآني أستغرب ارتدائي ملابس الحرب!!

في سخف قال:

- أشعر بخدعة في الأمر؟

أبهجني خوفه، شعرت بالإثارة، فسألته:

- هل أنت خائف يا "جذيمه"؟

صرخ غاضبًا وأوردته تكاد تخرج من وجهه المنتفخ:

- "جذيمه"، تنطقين اسمي مجردًا "زباء"، أنا ملك الحيرة الملك "جذيمه الأبرش" يا امرأة

ضحكت ساخرة مستمتعة بهذا الحوار، حاولت تهدئته قائلة:

- لا تتوتر، فقدان أعصابك لن يفيد في شيء هو أمر قد قُدر

كنت أراه بعين قلبي يهتز ويرتعب، ظهر توتره في صوته وهو يصرخ في، "أوضحي غرضك، وإلا لا تلومي إلا حالك إذا صح سوء ظني"، ما عدت مستمتعة بهذه المطاردة المنتهية، حانت النهاية ولإنهاء الموقف تقدمت منه شاهرة سيفي صارخة فيه:

- بل لا تلوم إلا نفسك، جئت لتطلب موتك لا عرسك، سأسقي بدمائك نباتات حديقتي.

مباغتتي له ألجمته، فانتهزت فرصتي ولم أترك فيه جزءا سليما، غرزت سيفي في كل شبر فيه، تركته ينازع الموت مكومًا داخل طشت لتتصفي دمائه.

بقيت لساعة أشاهد ما بقي منه ثم حولت وجهي عنه وأنا أصرخ في حرسي:

- يا حراس، ألقوا هذه الجثة أمام القصر، خذوا هذه الدماء وأروى بها زهوري، ليعلم الرعية أنني بررت بقسمي ونلت ثأري، أقيموا الأفراح سبع ليالٍ، مدوا الأسمطه والولائم فاليوم عيد، أطلقوا المنادين في الأسواق، أعيدوا مرافقي هذا النذل إلى "الحيرة" لتوصيل الخبر.

أيتها الجواري جهزوا حمامي فاليوم أنا عروس، أحضروا المستشارين، الحكماء، شيوخ العلم والأدب والشعراء، فلتحتفلوا وتعلنوا وسط الرعية أن عليهم مشاركة الملكة الاحتفال، جهزوا بطول المملكة وعرضها قاعات للمعازف والمطربين، فلتطيلوا السهر حتى الصباح، وزعوا الهدايا والعطايا على الجميع من أعظم شخص في المملكة حتى أحقر مشرد، أكرموا ضيافة أي غريب حتى يسجد داعيًا للملك "عمرو".

مرت الأيام وعدت للالتفات أكثر إلى شئون مملكتي بعد شهر من الاحتفالات، وأثناء تداول أمور المملكة أعلن عن وصول مستشار ملك الحيرة المقتول "قصير بن سعد"، هذا الرجل ماكر مشهور عنه الدهاء والخبث، سمعت أنه الوحيد الذي حث "جذيمه" على رفض عرضي لكنه لم يلتفت إلى رأيه وجاء لملاقاة مصيره، أستغرب مجيئه هل أرسله "عمرو بن عدي" بعدما استقر على كرسي العرش لينتقم لخاله ويأخذ بثأره؟! في الأمر مكيدة ما!!

أبقيت على المستشارين، وأمرت الحراس بالانتباه، أشهرت سيفي ثم أرجعته إلى غمده فلا يجب أن يلحظ توتري، أو توجسي خيفة من زيارته، ما أثار رعبنا، هيئته المزرية، مجدوع الأنف، مجلود حتى بارز جلده ملابسه في احتلال المشهد، الدماء تغطيه، متهتك الأنفاس ينافس الموت الحياة لنيله، تقدم حتى وصل أسفل عرشي وهو يهمس..

أنا في حماكِ مولاتي فأجيريني..

ثم سقط مغشيا عليه، أمرت بإحضار الأطباء وتطبيبه، كلما سألت عنه قالوا لا يدري بمن حوله، يهذي ويخرف حول قيام "عمرو بن عدي" بالانتقام منه لمقتل الملك جذيمة"، يصرخ مرددًا..

عفوك ورضاك مولاي، لم أشر على مولاي بالزواج من الملكة "زباء"..

عفوك ورضاك مولاي، لم أخدع الملك..

بريء من هذه الاتهامات، لم أخن مليكي..
أرجوك لا تعاقب عائلتي ولا تنفيني..
بقت حالته سيئة لثلاثة أيام، يفترسني الفضول، تأبى عيناي النوم، وإذا نمت تتسابق الكوابيس على اجتياح عقلي، كوابيس تسلبني لذة النوم، ما جمعته من هيئة وهذيان "قصير" أن "عمرو" اتهمه بغش "جذيمه" وعاقبه على ذلك، أخيرًا جاءتني الوصيفة بخبر حسن، أفاق "قصير" وتحسنت حالته، ويطلب الإذن بلقائي، كنت سأذهب إليه مخدعه فلا أستطيع مقاومة فضولي، لكن لا يصح أن أتبسط لهذا الحد، اللعنة على العرش وكبرياء الملوك، أمرتها بإحضاره إلى البلاط، لا أطيق الانتظار.
دخل "قصير" بعدما استعاد بعض عافيته، أنفه المجدوع، بشع الخلقة، قصير القامة يرتدي ثياب لا تليق بهيئته الماكرة، يشبه القرد، عيناه مكسورة النظرات، يتحرك بذل، هل هذا المستشار الأكبر للملك؟ حقا الملوك كما الأيام لا أمان لهم كما قيل قديما.
لم أمنحه فرصة إظهار فروض الطاعة والولاء، صرخت فيه:
– هات ما عندك يا "قصير" لا وقت نضيعه في سماع ترهاتك؟
قص في خضوع وانكسار، ما حدث معه وما لاقاه من أهوال، الملك "عمرو بن عدي" سمع لوشاية بعض أعدائه وصدق أنه قد سلمني مولاه، جدع أنفه وجلدة ألف جلدة لاتهامه بالخيانة العظمى وتركه على قيد الحياة ليكون عبرة لكل من يعتبر، ثم حبسه داخل دار حقيرة بعدما صادر كل أملاكه وشرد عائلته، أنذره بالقتل شر قتله إذا حاول الخروج، لذا هرب وجاءني محتميًا، تساءلت بيني وبين نفسي، هل علي تصديقه؟!.
عيناه مربكة، كلها خبث ومكر، الأمر غير مستساغ، حاولت مراوغته بالأسئلة، هل تحتمي بمن عوقبت بسببها؟! كيف تعتقد أنني سأصدق هذه الأكاذيب؟!

أجاب بثقة نفذت إلى عقلي:

– سيدتي أعلم أنك قتلت "جذيمة" لأخذ ثأرك لا يلومك أي شخص مهما كان، ثم أنني أثق في عدلك وإنصافكِ وأريد مساعدة مولاتي للانتقام ونيل ثأري لجدعه أنفي.

لم أريحه برد، اكتفيت بأمره أن يعود إلى مخدعه، وسأعلمه بما أقرره فيما بعد، مرت الأيام كان فيها "قصير" يثبت ولاءه وحسن تصرفه ودهائه، كل ما أشار علي به أفاد المملكة ودعم سلطاني، مرت الشهور وعادت إليه صحته، منحته الكثير من العطايا وقربته مني ليكون مستشار المملكة، أمرت نحاتي الخاص بعمل منخار ذهبي ثبته طبيبي مكانه.

يمكنني التعامل مع منخار ذهبي لكن لا أطيق رؤية وجه بشع بلا منخار ليل نهار، خصصت له جناحا في قصري ليكون قريبا مني في أي وقت، والأهم لأحميه ممن يتربصون به لقتله للتقرب من ملك الحيرة ونيل مكافأته المجزية، بعد أن أهدر دمه؛ قررت استغلاله كسلاح لضرب ذاك الملك المتغطرس، سأريه من هي الملكة "زباء".

جاءني يوما يطلب الخروج إلى الحيرة في السر لمقابلة أحد معارفه السابقين واستعادة ما منحه إياه لمشاركته في تجارة الأقمشة، ودعته طالبة منه الحفاظ على رأسه، عاد بعد أيام يحمل الكثير من الهدايا التي أبهرتني جمالها، أخبرني أن صديقه وفّي بوعده معه وزاد من تجارته وأنه سيضطر للذهاب مرة ثانية لأخذ نصيبه فصديقه يخشى افتضاح الأمر فتطير رأسه من على جسده عقاب تعامله مع "قصير"، في المرة الثانية جلب معه جواهر وديباج موشى بخيوط الذهب، وعطور متنوعة نالت استحساني، هذا الماكر يعرف كيف يرضي ذوق الأنثى الملكي.

قصصت عليه كابوسي المتكرر، وكيف ترقد جواري على الفراش حية تتسحب نحوي دون أن ألاحظها ثم تلتف حول عنقي لتخنقني، وبأن منجمي الخاص فسره بأن نهايتي ستكون على يد "عمرو بن عدي"، فسر الأمر بأنني أفكر كثيرًا في "عمرو" بسبب رغبته الانتقام لخاله، ونصحني بعدم إنهاك نفسي بأمور المملكة، والخروج في رحلة أرفه فيها عن نفسي لأتخلص من هموم المملكة الملقاة على عاتقي.

جاريته في الأمر كي لا يشعر بقلقي ولا خوفي من انتقام "عمرو"، أين هو مني على أية حال؟!، لاحظ شرودي فقدم نصيحة منحته على إثرها مائة جارية هدية، أخبرني أنه يمكننا إرسال أمهر رسامي المملكة سرًا إلى قصر "عمرو"، متخفين في صورة خدم، ليرسموه في مختلف الأوضاع، سيمكنني حينها التعرف عليه بسهولة إذا تملكته الوقاحة والجرأة يومًا للاقتراب مني؟

هدأت نفسي لهذا الاقتراح، فناقشت معه بعض الأمور المتعلقة بشئون المملكة، وبعد شهر عاد الرسامون ومعهم صور مختلفة تظهر ملامح "عمرو"، يستحقون المكافآت التي منحتها إياهم، أستطيع الآن التعرف عليه مهما تنكر، الصور تظهره كما لو كان حيا يتنفس أمامي.

بعد فترة طلب "قصير أن أسمح له بالتجارة داخل "تدمر" والذهاب للمرة الثالثة إلى مملكة "الحيرة" لإحضار الجمال المحملة بالبضائع، سمحت له وطلبت بعضا من الأقمشة الخاصة والعطور وليحضر على ذوقه ما يليق بمولاته.

دخلت الجواري على مخدعي هاشات باشات يخبرنني بعودة "قصير"، دخل إلى ساحة القصر ومعه قافلة من الجمال تنوء بحملها، يبدو أن هدية هذه المرة ستكون عظيمة كما وعدني، أتمنى لو كان أحضر المزيد من الجواهر والملابس الغريبة والعطور والبخور، فهم ما أعشقهم أكثر من أي شيء آخر.

قبل أن أصل إلى البلاط جاءت جارية، تلهث، صدرها يعلو ويهبط بعنف، أنفاسها مضطربة، عندما رأتني صرخت:

– خيانة.. خيانة، مولاتي لقد خاننا "قصير"، الجمال محملة بأجولة تحوي رجالا من الحيرة..

بُهت ووقفت ثابتة في مكاني، إذن هذا تفسير كابوسي اللعين كان الأمر منذ البداية مكيدة من "عمرو بن عدي"، وقعت فيها بقدمي، سألجأ إلى المخرج السري، ثم سأفكر في عقاب ملائم لهذا الخائن المسمى "قصير"، نادتني الجارية لأسرع، "هلمِ مولاتي، سيلحقون بنا".

لكنني عدت إلى مخدعي واستللت سيفي، حملت الجارية بعضا مما خف وزنه، ثم ذهبنا إلى مخرجي السري، منفذ هروبي الخاص، قلبي مضطرب الدقات، أنفاسي كما لو كانت تحارب الهواء لأخذ نصيبها منه، أتلفت يمنة ويسارا لا أعلم من أين ستأتي ضربة النهاية، هل سيتحقق الكابوس ونبؤة منجمي وأموت على يد "عمرو".. رأيت شبح داخل دهليزي السري، ناديته:

– من أنتَ؟!

بكل سخف أجابني:

– تعلمين الإجابة "زباء" وإلا ضاع مجهود رساميك، عليك شكري لسماحي لهم الاقتراب بما يكفي، أخبرني "قصير" أنكِ تزينين مخدعكِ برسوماتي.

ارتعش جسدي لذكر اسم هذا الخائن بشع الخلقة، صرخت فيه بشراسة:

– ذلك المسمى "قصير" خدعني، استغل ثقتي ودرس القصر، وأبلغك عن مخرجي السري، سأقتله شر قتلة، كيف يبيعني لمن عذبه وشوهه؟.

ضحك حتى بدت نواجذه وسأل ساخرًا:

– هل كنتِ تظنين أنني ساذج حقًا وظننت به السوء؟!، حمقاء، هو من دبر المكيدة كاملة، وحتى العقاب الذي سمح بدخوله قصرك والاقتراب إلى هذا الحد

القاتل، هو من أصر عليه، عليكِ الاعتراف بأنها خدعة محترفة على التاريخ تسجيلها، سأقتلكِ، هذه إجابة السؤال الصحيح ماذا تفعل هنا لا سؤالك الأحمق من أنتَ؟

صرخت بقوة وعزم:

– بيدي لا بيد "عمرو".

رأيت الحيرة في عينيه تتراقص وهو غير مدرك لما أقصد، تحولها إلى الغضب وهو يراني على الأرض أمامه أنازع الموت وعذابه، خفف عني ألمي وبشاعته منظره المضطرب الحائر، لأبتسم في سخرية، سلبته نصره، جذب رأسي وسمعته يصرخ بصوت أجش، وأنا أنازع الموت وأحتضر؛ والظلام الدامس يلف محيط رؤيتي:

– أيتها الملعونة أتحملين خاتما مسموما، لن أدع السم يسبقني إليك، سأقتلع رقبتكِ قبل أن يسري في جسدك مفعوله، تذكري هاتين العينين وأبلغي سلامي إلى والدكِ الملعون.

أظلمت الدنيا، لأراني روحًا هائمة في ملكوت لا ينتهي.

انتهت

"الكاهنة"

ارتديت ملابس فضفاضة، ألقيت عباءتي السوداء الموشاة بالذهب على كتفي، زينت وجهي بدماء وطواط ذبحته للتو لتكون ساخنة جلبًا للفأل الحسن، استندت على عصاي الأبنوسية المشكلة على هيئة إلهي الأعظم، قبلته داعية أن يمنحني بركاته ورضاه في معركتي القادمة.

أشعر بالإثارة فلكم أعشق هذه الأجواء الروحية، تعيدني لأيام شبابي يوم كنت جميلة جميلات الأمازيغ، ساحرة شمال أفريقيا الفاتنة، قبل أن تسرق السنين بهائي وحيويتي ونضارة جسدي المنهك من هذه الحياة، سجدت أمام الإله مطأطئة الرأس، مغمضة العينين، أدعوه بخشوع..

إلهي كن جواري سندا وقوة، أحتاج دعمك فلترسل شياطينك تقويني وتنصر جندي في معركتي القادمة، إلهي لا تخضعني للعرب ولا تخذل أمال قومي المعقودة علي.

أشعلت القناديل المائة داخل خيمتي، ثم ذهبت إلى موقد النار وأججت نيرانه بمزيد من الملح والبخور، طحنت صخور المسك وأضفتها إلى النيران، رددت بعض الطلاسم والتعاويذ لجلب الفأل الحسن وأخرى ترضية لشيطاني ليوافق على المجيء لزيارتي، جلست على أحد الوسائد المصنوعة من ريش النعام، كنت قد أخليت الخيمة من الخدم، وهيأتها لأمارس حالة السكون اللازمة لجلب شيطاني، لكن فجأة هبت فكرة كما ريح عاصف اقتلعت هدوئي، قررت أن أمنح إلهي قربان شكر ليتكرم بعطفه ويقويني أكثر في مواجهة "تانيت"..

وقفت ثانية وأنا أنادي على تلك الملعونة "شمرا"، جاءت تتخبط ساقاها في بعضهما، ينز العرق من بين خصلات شعرها الذهبية، يتراقص ثوبها رعبًا، تلك السمراء العسلية العينين لازالت تخاف من شياطيني رغم محاولتي تعليمها ما يحتويه عقلي من خدع، دعوتها لتقترب..

نزعت خصلتين من أشعتها الشمسية، ثم شعرتين من أهدابها الساحرة، كانت ترتعش أكثر لكنني ربيتها على الصمت في هذه المواقف وإلا قطعت رأسها، كانت أنفاسها تفوق صوت صهيل الخيل، أخرجت سكيني، ففزعت وابتعدت شاهقة تسابق دموعها بعضها البعض خوفًا..

صرخت فيها:

- اصمتي، أقسم بالآلهة جميعا أن أنحر جيدك المرمري هذا وأتركِكِ تنزفين حد الموت إن تصلبتِ هكذا مرة ثانية؛ اقتربي يا ملعونة، فتاة غبية.

جذبت يدها ثم جرحت معصمها لتسقط بضعة قطرات من دمائها على النار، ثم أبعدتها بغضب وهي تنتفض فزعًا:

- اغربي عن وجهي ودعيني أكمل صلاتي.

وشوشت نفسي مشجعة إياها؛ "جميل.. جميل"، وضعت المزيد من البخور داخل النار المتوهجة؛ ثم صببت الرصاص السائل عليها، شعرتان بيض من شعري، ثم نزعت غطاء رأسي ونشرت شعري، ألقيت مزيدا من البخور والملح ليفرقع ويزيد توهج النيران، ازداد توهجها واحمرار ألسنتها، تراقصت أمامي بمجون كما غانية تتلبسها حية رقطاء، جرحت باطن يدي لتختلط دمائي باللهيب المتصاعد، ثم عدت لترتيل العزائم، اكتملت خطوات تحضير شيطاني بوصول روحي إلى السماء، لا وقت لمزيد من التعقيدات، ولا مجال لأيه مفاجآت في ظل ضربات الطبول الصارخة بالخارج.

جلست ثانية على وسائدي الوثيرة، أغمضت عيني وأنا أحرك جسدي للأمام وللخلف بطريقة هادئة كي أسمح لروحي بالانسجام مع عناصر الطبيعة، علي الخشوع أكثر، غصت داخل كلمات التعويذة، فترة قصيرة وبدأت أشعر بجسدي خفيفا كما ريشة تسبح بين نجوم السماء، أخيرًا وصلت..

جلست فوق إحدى الغيمات، ناديت:

أين أنت؟، "تانيت"

شعرت بأنفاسه خلف أذني قبل أن يداعبها بلسانه وهو يتحدث بصوت مغطّى بصوت فحيح حياته:

– خادمة كاهنة الأرباب الأمازيغية، لم تستدعيني منذ فترة، ظننتك استغنيت عن خدماتي.

همست في دلال:

– وهل أستغنى عن عيني، ما الذي يخطط له العرب؟، فيمَ يفكر "حسان بن النعمان"؟.

ابتعد قليلا وهو يداعب بيده جسدي في شهوة شرهه:

– لماذا تريدين المعرفة لقد دحرتِ جيشه منذ خمس سنوات وهزمتيه هزيمة منكرة؟

ابتسمت لخبثه يسأل رغم علمه ما يحدث، أجبته بهدوء:

– تهيأ لملاقاتي، ويستعد للهجوم علينا من جديد.

تنفس بعمق وهو ينظر إلى الأعلى إلى ما لا نهاية قبل أن يطلق نبوءته:

– النصر لك حتى يكمل القمر دورته خمس مرات، فالآن الجميع يهابك رومان وعرب، وهؤلاء العرب يذكرون إحسانك للأسرى وإعادتهم سالمين، وتبنيك لهذا الشاب "خالد بن يزيد"، أخبريني لمَ تهوين فعل ذلك؟، في البداية ولد يوناني ثم روماني والآن عربي، هل تربين الحيات داخل جحرك؟

زممت شفتيّ قبل أن أجيبه:

– بل أربي من يعود إلى قومه ويبث الرعب منا، هم من سيثبتون أقدام الأمازيغ في بلادهم حينما يحين الأوان، خمس دورات فقط للقمر!!، ماذا سيحدث بعدها؟

ضحك وهو يجيب في خبث وثقة هزت أعماقي:

– بعدها سينقلب السحر على الساحر.

باغتني رده فصرخت فيه مهددة:

– هل تهددني "تانيت"؟، يمكنني الاستغناء عنك تعلم هذا.
ضحك في تهكم ببساطة وهو يسخر مني:
– أصبحت مغرورة "ديهيا" سأراقبكِ لأرى ما ستصلين إليه دون مساعدتي.
إجابة مهينة، من يظن نفسه، لكنني في حاجة إليه، بدأ في التلاشي فحاولت مهادنته ليعود:
– انتظر لا تتصرف لم أقصد إغضابك، يا للجحيم، العرب من حولي، والكوابيس تحاصرني، وأنت صديقي تغضب وتتركني وحيدة في خضم حاجتي إليك، لكم أشعر بالوحدة، معدتي تتقاتل فيما بينها لتفرز عصيرا مر يضايق روحي.
عادت روحي إلى جسدي، لألقي به على مقعد قرب النيران أتابع لهيبها، حاولت قراءة ما توشوش به من أخبار، سرقتني الذكريات لأعود إلى اليوم الذي هزمت فيه جيش "حسان"، يوم دحرت وجودهم وتابعتهم حتى القيروان، اكتفيت يومها بالعودة إلى الأوراس، فيكفيني شرف النصر، استغرب قادة جيشي الأمر, وأرادوا تخريب المدينة فمنعتهم، لم يستوعبوا يومها أن سياسة التخريب ليست من شيمي، استعدت أرضي من الرومان والعرب والبيزنطيين ووحدت القبائل تحت سيطرتي بعد وفاة الملك "كسيله" بقوة سيفي وبذكائي ودهائي، كنت أضرب وجندي الأرض مزعزعة ممالك من مكانها..
الجميع يعتقد أن شياطيني تساعدني وتمدني بالقوة، لندع الشياطين تخبر جواري وعبيدي بنبوءاتها ولنرى كيف سينتصرون؟!، يقللون من شأني، وينسون أنني من أصول أمازيغية شريفه دمائي نقيه سليلة فرسان شجعان..
رزقت الدهاء بالمولد، الحكمة والفطنة بخبرة السنين ومتابعة النجوم وأخبارها، لم يعلموا أنني لم أخرب أي شبر عندما هزمت "حسن بن النعمان" لأنني أعلى من تقليد فعل الجبناء، سمحت لهم بالفرار إلى مصر وليبيا، لأنني اقتربت منهم إلى الدرجة التي سمحت لي بلمس تحضرهم وحبهم للأعمار مثلي، أدركت رغبتهم

نشر دعواهم ورسالتهم المسماة "الإسلام"، صحيح لا أستوعب كيف يفتحون المدن بقوة السيف ثم يعلنون أنهم يريدون نشر الإسلام فقط؟، لكن لا هم أولا وأخيرا كالرومان لا يهمهم غير كنوز وخيرات البلاد من ذهب وفضة ومعدن، يكفينا نحن الأمازيغ المزارع والمراعي، لذا بدلت سياستي وعدت أحرق ما أتركه خلفي وسأحرق كل ما يجعلنا مطمعا في أنظارهم، سأفعل أي شيء وكل شيء لإبعاد أنظارهم عنا ووأد رغباتهم في إخضاعنا.

أووف..

لازالت كلمة الملعون "تانيت" تدوي في أذني يوم انتصرت..

– أيتها الكاهنة أبشري، "الحسان بن النعمان" أخبر خليفته الأموي "عبد الملك بن مروان" أنك سبب انتصار قبائل الأمازيغ، وإن أمم الأوراس ليس لها غاية، ولا يقف أحد منها على نهاية، كلما أُبِيدت أمة خلفتها أمم، عليك الحذر الفترة المُقبلة فهناك نيران ستنطلق من داخل قصرك لتلتهم الجميع.

أثار جلبة داخل نفسي فطلبت منه الإفصاح أكثر، تركني كما فعل اليوم دون أن يوضح مقصده.

"تانيت"

اللعنة على ذلك الشيطان الغضوب..

لم أبقَ لأكثر من مائة عام من عمري في خدمة شعب الأمازيغ وإعلاء رايته ليهددني العرب الآن ويحاولون طمس أثرنا، لم أنتقل من قمم جبال الأوراس الجزائرية إلى بلاد إفريقيا المختلفة لأهزم في النهاية مجموعة من الرعاع الهمج الساعين لنهب ما ليس لهم ليخربوه ويتركونه دمارا، هل أصدق ما أردده؟!

هل هم رعاع، همج دمويون حقًا؟!

لمَ تنازعني نفسي عنهم، وتدافع عنهم؟

ما تلك النيران التي يقصدها "تانيت"؟!

ما السحر الذي يدعي أنه سينقلب على ساحره؟

هل ستخونني "تانيت"؟

ربما هذا مقصده من يأمن جانب شيطان ويسلمه ذقنه؟

هل ملك العرب أقوى مني وتمكن من السيطرة على شيطاني؟

آه "تانيت"..

لولا إنني لمست بنفسي كرم العرب وحسن تعاملهم وإنسانيتهم بعدما حاورتهم و"خالد" قبل إطلاق سراحهم في معركتي الأخيرة، لظننت أنه يشككنني في ولاء "خالد"، عليك اللعنة وغضب الآلهة "تانيت".

كيف أشك فيه وهو يحاورني بعقل وثقافة واسعة مظهرًا سماحة دينه؟ هل ما يزينه في رأسي عن دينه مجرد خدعة؟!..

لكن كيف وكلما أسمعني بعضا مما أنزله ربهم على رسوله؛ لمست فيه البر والإحسان والصفاء..

كيف أشك فيمن أوكلت إليه تربية أولادي وتعليمهم دينه؟

كيف أشك فيمن طعم من الشعير والزيت المدهون به صدري مع باقي أولادي ليصيروا أخوه؟

تعال أيها الشيطان، من تقصد أيها الملعون "تانيت"؟.

كثيرًا ما تمارس الألاعيب معي؛ لكن اليوم لست في حال يسمح بذلك، لا خُلق لدي لاحتمال سخافتك وقد شاب شعري وفرط عقد العمر ووصلت إلى المائة سبع وعشرون، أيها الخبيث، عد وفسر قولك.

هل شعر بأن همتي قد فترت ولم أعد أرغب في محاربتهم بعدما تأكدت من حسن نواياهم؟ ماذا يقصد يا ترى سيتشتت عقلي؟ ماذا يقصد؟!

علي الذهاب إلى صومعتي لعل أحد الرؤى تغشاني وأدرك ما يدبره العرب، منذ عسكرنا في جنوب "تبسه" والأحوال غير مستقرة، حلم النار ينغص علي نومي.

"خالد" ليتني أستطيع مواجهتك الآن..
هناك ما يريب حول ولائك، أشعر بدقات قلبك المضربة أمامي، نظراتك فيها بعض من المكر ونية الغدر، أستطيع لمسها بمجرد نظرة من عيني، لكنني أتغاضى عن شكوكي لأن روحك عامرة بالحب!!
ماذا يدور في مخيلتك أيها العربي المسلم؟!
يا للجحيم
هذا الكابوس للمرة الألف، لمَ يعاود احتلال أحلامي؟!
مرت الأيام لتتضح الحقيقة جلية، افتضح أمر "خالد"، وأدركت تفسير مقولات "تانيت"، تأكدت الشكوك المثارة حول ولاء "خالد" واكتشفت خيانته، بعدما سرب الخائن خرائط التحصينات والمؤن، خطط الحرب، شعرت بالخزي لأني أعتبره ابني، لقد أبلغ قومه كل أخبارنا، استخدموا الخيانة لقهري، كنت أربي لخمس سنوات ثعبانا ماكرا داخل طيات ملابسي..
لم يكفهم هذا، أكملوا محاولة إخضاعي ومنعوا الماء عن الجيش، تغلبت على هذا بحفر بئر جديدة؛ أسماها جنودي بئر العاتر "الكاهنة".
علي التفرد بأفكاري بعدما أدلى مستشاري كل واحد منهم بدلوه، زاد وعاد قادة الجيش في وسائل مجابهة العرب في المعركة القادمة، محاولات متعددة لاستبدال كل الخطط، علينا التجهز والاستعداد قبل ملاقاتهم والالتحام معهم، ستشرق الشمس بعد قليل وعلي تنفيذ ما كنت أفكر فيه..
همست لنفسي، فيمَ تفكرين "ديهيا" الأمر محسوم، عليكِ إرسال ولديكِ إلى "خالد" ليتبعاه ويعلنا إسلامهما، الغد للعرب وعليهما أن يحافظا على مجد جبل الأوراس، نعم "ديهيا" عليكِ تنفيذ فكرتكِ هذه، غدًا أرسل في طلب "خالد" وأطالبه بحفظ أمانتي وبأن يوصلها إلى "حسان"؛ ليمنحهما ملك "جراوة" من بعدي..

أواه منك "خالد"، كيف سنتواجه؟، خنت من وثقت بك وربتك في بيتها، كيف واتتك الشجاعة لخيانة "الكاهنة"؟، يمكنني الغدر بك بالمثل وفصل رأسك عن جسدك، لكن..

لحظك أنني لا أريد قتلك، أريدك على قيد الحياة، ستكون نجمتي الأخيرة للمرور من هذه الأزمة، ستكون الفأل الحسن لأبنائي ولقومي من بعدي أهل جبل الأوراس، فلا تقلق..

لا أحمل ضغينة في قلبي تجاهك، سأطلب منك فقط المحافظة على أخويك ورعايتهما، أعلم أنك ستوافق، أما أنا ولدي فعلي البقاء لمحاربة قومك، ستغضب لقولي هذا ولكن علي إعلانه.

سأفعل ليس عن بغض أو عدم تصديق لوعودكم، لكنني وعدت قومي يوم ملكوني بالقتال في سبيلهم وعلي الموت وفاءً لوعدي، علي الموت دفاعًا عنهم وحماية لهم، لا يجب أن أخذلهم وأسلمهم لقمة سائغة؛ أعلم مصيري الشنيع، ستقطعون رأسي معلنين هي مجرد مشعوذة مجنونة.

قد تنشرون عني الأكاذيب..

لكن لا سبيل للهروب من مصير ثبتته الآلهة بخيوط فضية في النجوم، الوقت يمر ببطء, لهيب الشمس غطى الأرض، نشرت أشعتها لتنير الكون من حولي، علي التهيؤ والاستعداد، فاليوم سأرسل أولادي لملاقاة مصيرهم وأودع العالم، أسقي بدمائي "تبسه" أرضي الحبيبة، فلقد اكتفيت من الحياة ومن المجد ولا سبيل للرضوخ، آه "تانيت" ساعدني لأقوى على هذه المواجهة الشرسة المحكومة بفنائي، سأواجه الموت بابتسامة لن أقنط.

انتهت

"أتيلا الهوني"

"أحرق وأقتل لا تسمح لأي شخص بقهرك، صف دماء أعدائك وعتقها نبيذ يمنحك القوة كل صباح"

نصيحة والدي "أتيلا الهوني" سليل العائلة الملكية وملك ملوك الأرض، "عقاب الله" و"سوط الله" كما أسماه أعداؤنا..

لم يتعلم القراءة ولا الكتابة لكنه علمني الكثير، كان دائما يخبرني، "ولدي لقد حكمت قبائل الهون لسنوات بقوتي شخصيتي وهيبتي الطاغية، عليك السير على خطاي، حافظ على سمعتك كما أفعل، لقد أرسلت لعقاب أهل الأرض من الأمم الأخرى".

لازالت صورة زوجته "فوتورن" أمام مخيلتي يوم استهانت بقدراته وحكمته وافترت على زوجة أخرى بأنها تنام مع أحد عبيده، ثار وطال غضبه كل القبيلة، مزق العبد بسكينة قطع قطع، ثم قتل زوجته وعائلتها أمام القبيلة التي وقفت تراقب في صمت، بعد أيام اكتشف الحقيقة وعلم كذبها، فعاقبها بنفسه، قام بذبح طفليها وأكلهما أمامها وأطعمها منهما قبل قتلها بيده بالبطيء لتكون عبرة لكل من تسول لها نفسها أو نفسه بالافتراء والكذب عليه، انتشر ما حدث ووصل لأعدائنا زادوا على ألقابه لقب "يوم الحساب"، من نصائحه الغالية لي:

– "كريشو" ازرع الخوف في القلوب، أرعبهم بأفعالك سيحيطونك بهالة ويقدسونك، أريدك من بعدي إعصارا مدمرا، ازهد في الدنيا تخضع لك.

يعاقبني عندما أعارضه لعشقي متع الحياة، لا يعجبني القصر الخشبي البسيط، لا أريد أن يكون غطائي من الصوف والوبر أحب الفرو، أعشق ارتداء الأثواب المزركشة، يبهجني رؤية آنية الذهب والفضة وهي تحتوي صنوفا متنوعة من الطعام، كيف أرفض السيوف البراقة وسروج الخيل المتنوعة؟

دربني بنفسه، يباغتني ويشهر سيفه ويطالبني بالانتصار عليه.

كثيرا ما ثار في وجهي موبخًا:

– الحياة لا تحتاج لمرهف ضعيف مثلك، كن جبارا مثلي وإلا قتلتك بيدي، من سيحافظ على إمبراطوريتي إذا كنت بهذا المنظر المتكاسل، أشمئز من أفعالك هذه، لقد قتلت عمك "بلاديا" لضعفه، كنت أعتقد أنك مثله في الهيئة فقط لا الأفعال أيضا!! اغرب عن وجهي لا أريد رؤيتك حتى أراك رجلا حقيقيا يعتمد عليه، اغرب عن وجهي.

ذات مرة وبعد وصلة توبيخ وسخرية معتادة، وأثناء خروجي لمحت مستشار القبيلة، معه شخص غريب يحمل سيف ملفوف في قطعة من حرير قرمزي، أوقفتهما لأستطلع الأمر، فطلب مني العودة معهم لمقابلة الملك، جرّأني فضولي فعدت، بعد التحيات وتقديم فروض الطاعة والولاء، سمح للمستشار بالحديث ليخبرنا بأنه قد حصل على هدية فاخرة تليق بسمو الملك، رجل مخبول سيف صدئ، توقعت أن يقتله والدي..

لكن ما حدث أن ذاك العجوز أثار فضوله بالإشارة إلى الماسات التي ترصعه، أراه الدماء المتجلطة على طرفة، ثم قال بصوت بغيض:

– هو سيف يليق برجل محظوظ مثل إمبراطورنا العظيم، "سيف مارس".

يا لألهه، "سيف مارس"، كاد قلبي أن يتوقف وصوت والدي الأجش يعلن في فرح..

– سيف "مارس"، بالتأكيد هذه إشارة من السماء بفتح وإبادة الأمم الضالة، سأطهر الأرض لشعب الهون، أعلنوا البشرى لأفراد القبيلة، انشروها بين القبائل، تجهزوا لبدء غزونا المبارك فمعنا "سيف مارس" العظيم.

مرت شهور ننتقل من معركة إلى أخرى، منتصرين، مكللين بالغنائم، وقطع من أجساد من نسحقهم، سمعنا أن زلزال قد ضرب مدينه القسطنطينية وهدم أسوارها، يومها ضحك بشدة قائلًا:

- السماء تأذن لنا باجتياح المدينة، تحوطنا بركاتها، الليلة احتفال ورقص حتى الصباح احتفالًا بهذا الخبر السار.

في شموخ ملك عظيم وكبرياء إمبراطور مظفر، رفض مهاجمة المدينة فالزلزال تكفل بالأمر عنا، أخبرني حينها بوصول رسول الإمبراطور "ثيودوسيوس الثاني" بعدما علم بشان رفعنا الجزية لتبلغ سنويًا ألفي ومائة رطل ذهب، أخبرني أننا سنزحف نحو الأراضي الأوربية.

كنت أشاهد معه نظرات الرعب في عيون من ندوسهم تحت أقدامنا فننتشي وتزيد قوتنا، استولينا على مدن جنوب روسيا وسبينا الآلاف، كانت الإشاعات تسبقنا، تحكمنا في الغرب بالرعب وأساطير عن قسوة إمبراطورنا وقوة بطشه، تحول لوحش قاتل في نظر الجميع، لم يتبقّ أمامه غير بلاد الشرق، لا شيء يستطيع منعنا ولا حتى آلهة السماء.

أثناء أحد اجتماعاتنا مع قادة الجيش للتخطيط لهجمة جديدة، وصلته رسالة من الأميرة "هونوريا" أخت الملك "فلنتنيان الثالث" إمبراطور روما الغربية مع خاتمها تستنجد من ظلم أخيها ونفيه إياها إلى القسطنطينية ورغبته تزويجها من سياسي مغمور لاتهامه إياها بإقامة علاقة مع مستشارها، قلب الخاتم في يده لبرهة قبل أن يخبرنا:

- إرسالها الخاتم عرض بالزواج، ما ظنكم؟

انتظرت ممتنعا عن إبداء رأيي ولكن أسرع القائد "مونيرو" يجيبه في لهفة:

- علينا إعادة التفكير وتدبر الأمر، لا نريد التورط بأمر قد ينطوي على خديعة.

دار حول محورة قبل أن يجيبنا في هدوء غير معهود منه:

- "مونيرو" أنت قائد الجيوش أرسل عيونك يستطلع الأمر ويتأكد من صحته، وأنت يا ولي العهد، سأخضع بلاد الغرب دون إراقة الدماء، أريدك أن تختار رسولا لأخيها يطالبه بنصف أراضي الإمبراطورية مهر شقيقته كما تقضى عاداتهم..

انصرفنا لتنفيذ الأوامر، بعثت جواسيسي تتحسس الأمور، أكدوا قصة الأميرة،؛ فأرسلنا نطالب بالمهر، لكن أخوها المتغطرس رفض، زاد الطين بلة برفض الاستمرار في دفع الجزية مثل إمبراطور الشرق "مرسيان"، فقرر "أتيلا" كبيرنا وإلاهنا المعظم، عقابهم بجيش قوامه نصف مليون رجل، فك عقال الجنود ليجيثوا خلال المدن تقتيلًا ونهبًا.

أثناء الزحف أعجبته ناسكة في دار عبادة قريبة من منطقة "كولونيا" غرب ألمانيا تدعى "أرسولا" فعرض عليها الزواج لكنها تجرأت ورفضت، فذبحها مع إحدى عشر ألفا من المتنسكات، وعلمنا أن ملك القوط "ثيودريك الأول"، انضم إلى جيش الرومان بقيادة "إيتيوس".

ضحك يومها "أتيلا" كثيرًا على جهله، فلن ينقذه منا أي شخص، تقابل جيشانا في حقول "كاتالونيا" قرب "ترويس"، اصطفت الجيوش وتقدمنا ملكنا العظيم، على حصان أسود ضخم، تنقل بيننا ينظر بعين نسر يستعد للانقضاض على فريسته، لازال صراخه داخل أذني وهو يعلن لنا بصوت أجش مدوي:

– السماء غائمة تشجعنا على الانتقام، اليوم سنقضى على من تجرأ ويحول بيننا وبين ما نريد، من يتخاذل منكم يعلم مصيره، النار منتظرة جسد الخائن والمتخاذل والضعيف، اليوم يوم نصر ببركة الآلهة، هجووووم..

في لحظات تحولت الحقول الخضراء إلى بحر من الدماء، رائحة الأشلاء تغمرنا بالنشوة والطاقة، نشرب الماء مختلط بدمائنا ودمائهم، لكن فجأة تشوشت الرؤية واضطربت، الآلهة غاضبة علينا لكنّا لن نستسلم، فالخوف من انتقام "أتيلا" يتغلغل بين أضلعنا.

صراخه يهلهل أعصابنا لنتحول من أسود إلى هرة صغيرة تنتظر سقوط الهراوة على رأسها عقاب سوء أدبها، زادت حماسة الجنود عندما قتل "أتيلا" ملك القوط، فشعرنا بعودة بركات الآلهة، لكن سماع صراخه الغاضب وهو يتوعد الجميع

بالموت، أرعبنا، زدنا من هجومنا ولكن في النهاية اضطررنا للتقهقر، حالفنا حظ "أتيلا" ولم يتبعنا جيش القوط ولكن الهزيمة لازالت تحوم فوق رؤوسنا..

كان يصرخ كذكر جاموس غاضب:

– يا لها من فضيحة!! كنا سنسحق أوروبا ونخضعها لسلطاننا، كنا سنُحَبِل نسائهم لتحمل أجنتنا ونطهر جنسهم الدنيء بالاختلاط بعرقنا، هزمت للمرة الأولى أيها الجبناء، سأقتلكم وأكون جيشا يُعيد سمعتي.

كانت يده تلقي بكل ما تطال، يكسر كل ما يراه أمامه، سكب النبيذ وألقى بالطعام على الأرض، ثم خرج غاضبًا صابًا لعنته علينا جميعًا، جمع سروج الخيل في كومة ثم أضرم النيران ، كنا نتبادل النظرات بفزع هامسين:

اليوم يوم الحساب..

كنت أرتعد رغم كوني ولي العهد، "مونيرو" سيحرقنا مع باقي الجنود عقابا على هزيمتنا المنكرة!!

يا إله الحرب أنقذنا!!

يا للعار الذي سيلحق بعائلاتنا..

يا أيتها الآلهة أنجدينا..

احمي جلودنا وسيقدم كل جندي هوني أربعين رأسا من سبايا الجرمان عندما نذيقهم عار الهزيمة، ونمثل بجثث رجالهم وشبابهم..

يا للجحيم..

ربما سيلقي بنفسه هو ليتخلص من عار الهزيمة؟!

يا للفحش سيفعلها حقًا، فاجأنا بأنه سيلقي بنفسه داخل أتون الجحيم الذي صنعه بيديه، تصلبنا في أماكننا، لكن هجم عليه " مونيرو" ليمنعه من فعلها، قاومه وقذف به بعيدًا عنه، صرخ فينا:

– لن يمنعني أحد من الموت محوًا لهذا العار.

أفقت من شعوري بالخذلان وانطلقت لمساعدة "مونيرو"، ياله من ثور جامح، أبعدناه بصعوبة، كنت أهمس له بصوت مرتعش:

– لمن ستتركنا يا ملك الملوك، أرجوك اهدأ وسنرفع رأسك ثانية

تجرأ مستشاري القبيلة، اقتربوا منا ونحن متشبثين به، ركعوا ملتمسين هدوءه، حاولوا إقناعه أن الأمل لازال موجودا، الأمر ليس بشع كما يتصور، لو انتحر كل ملك بسبب خسارته لما وجدت الأساطير، لكنه استمر في صراخه:

– ستذكرني الأساطير بأنني من خسر وضاعت هيبته بسبب غباء هؤلاء المحملقون في، سأكون أسطورة يتضاحك عليها الصبيان.

استمر الرجال في الحديث، كان أملهم بإقناعه أن من بعده سوف تتقوض أركان إمبراطوريتنا، سنكون أضحوكة الأمم، عليه التخطيط للانتقام من القوط، لا الهروب بالموت، عليهم أن يدفعوا ثمن خطيئتهم في حق مولانا.

أخيرًا اقتنع وهدأ، ليكرر بصوت أجش وهو يبصق على الأرض مع كل كلمة:

– سأجعلهم يدفعون الثمن، أنا "أتيلا" ضد الموت، محصن ببركات الآلهة، سأعود وأنتصر، سأغلي دماءهم وأثمل منها، استعدوا للانسحاب من فرنسا ليلًا، سنعود إلى ألمانيا.

تنفسنا الصعداء وبدأنا نخلي المعسكر، ظللنا عاما ننظم صفوفنا، ثم انطلقنا إلى عقر دار الرومان "إيطاليا"، دمر جيشنا قلب الإمبراطورية الرومانية، زحفنا حتى مشارف "روما"، وأثناء الاجتماع مع القادة، سمعنا ضجة.

خرجت لأستطلع الأمر فوجدته رسول الإمبراطور "فلنتنيان" ووفد بقيادة بابا روما "ليو الأول" يطلبون الإذن بالدخول، استأذنت لهم وأدخلتهم حاملين الهدايا، تبادلوا النظرات المندهشة عندما قبلها "أتيلا" ببساطة، فتجرأوا على طلب السلام وإيقاف نزيف الدم، عرض شروطه ليفكروا فيها ثم دعاهم إلى وليمة تليق بالسادة.

انصرف الوفد، وسط استغرابهم واستغرابنا نحن أبناء "أتيلا"، تجرأت لأستفسر عما حدث، كيف يوافق على عرضهم؟!، صرخ:

– يا غبي الجيش منهك بسبب الطاعون وقلة المؤن، المجاعة متفشية في إيطاليا، وباقي جيش روما يسرع الخطى لنجدتها من زحف جحافلنا، سنعود إلى العاصمة "بودابست" في جبال الألب.

شعرت بجسدي يشتعل ولكنني خشيت مجابهته، انسحبت خارجًا، بعد فترة وجيزة قرر الزواج من "هيلديكو"، سبيته المفضلة جرمانية يعاشرها منذ عام، جميلة ساحرة العينين والجسد، احتفلنا بشرب الكثير من الخمر، تركنا العروسين ينعمان بليلة قمرية تغري بممارسة الغرام حتى الصباح..

أمرني قبل مغادرتي مع الجميع أن أجمع قادة مجلس الحرب عندما تتوسط الشمس السماء؛ لإعداد خطة مهاجمة القوط من جديد، فذهبت للاحتفال مع إحدى زوجاتي، اليوم التالي استدعيت القادة، تبادلنا الآراء حول بعض الأمور التي نريد مناقشته فيها، الجميع ينتظر مولانا المبجل فقد حان موعد خروجه ولم يظهر، كنت الوحيد المسموح له بالدخول عليه في أي وقت، استأذنت منهم وذهبت إلى مسكنه، دخلت المكان هادئ يبدو أنه لازال يغط في نوم عميق بعد ليلته بالأمس، ناديت ثلاث مرات ولا مجيب، فكرت في المغادرة ولكن فكرة أن إزعاجي إياه فكرة لا تقارن بفكرة أنه ربما غفل عن اللقاء وسيعاقبني أيما عقاب لعدم تنبيهه أرعبتني أكثر، فتجاسرت واقتربت من باب الغرفة وخلفي الحراس على مسافة.

أغمضت عيني وأنا أدخل في وجل وخشوع، رأسي مطأطأ للأسفل، يا للجحيم، لمحت دماء تغطي الأرضية، تجولت ببصري في أنحاء المكان، بقع كثيرة مختلفة الحجم، لم أستوعب ما يحدث، العروس مكومة عيناها منتفخة يبدو أنها ظلت ساهرة تنتحب، نظرت نحوي متبلدة، ذاهلة، صرخت فيها:

– ماذا فعلتِ أيتها المخبولة؟! لقد رقاكِ وتزوجكِ لتتحولي من عشيقة حقيرة وحثالة إلى زوجة الملك وأم لأبنائه!!

لم تجب، ظلت صامتة تبكي بصوت مبحوح، صرخت في الحرس:

– اقتلوا العاهرة المجنونة، اسحلوها أمام القبيلة ثم مزقوها بالسيوف.

هجم عليها اثنان وجروها على الأرض من شعرها، صرخت وهي تقاوم بأنها لم تفعل أي شيء، سمعت صوتها في الخارج تكمل بصخب:

– لم أقتله، كان ينزف من أنفه، حاولت لفت انتباهه لكنه كان مخمور، نالني بعنف ثم انقلب على ظهره ونام، لم أقتله صدقوني!!

كان الصوت يضعف حتى صمتت، اقتربت من والدي، كانت الدماء تغطي رأسه، يا لها من نهاية، أتموت هكذا ببساطة يا بطل؟، هل نزف أنفك كما تقول الغانية ودخل إلى رئتيك وخنقك؟

ربما سممت شرابك ولم يلحظها أحد؟

يجب أن يبقى الأمر سرًا، اجتمعت مع أشقائي ومستشاري إمبراطوريتنا، تناقشنا كثيرًا حتى استقر أمرنا على وضع جسده العظيم مع غنائمه المفضلة داخل ثلاث توابيت من الحديد والفضة والذهب، اخترت ستا من الجنود الثقات، حملوا التوابيت ودفناه سرًا على ضفاف النهر مكانه المفضل، ضمانًا للسرية قمت مع مستشاري بذبحهم بأيدينا، كل من شارك مراسم جنازته قتلناه؛ كي لا يُعلم مكان ضريحه، ستظل إمبراطورية الهون باقية كرمز للرعب والموت، هكذا وعدته أمام قبره.

مرت الشهور حاولت فيها أن أُثبت كوني الوريث المستحق لهذه الإمبراطورية العظيمة مترامية الأطراف، قاومت انهيار مملكة الهون، حانت اللحظة الحاسمة، المعركة التي ستعوض هزيمتنا في معركة "شالون"، غدا سأخلد اسم "أتيلا" ليكون البطل الخارق، من انتصر حتى على الموت، سنحارب باسمه وبنصرنا في معركة "نيداو" ستكون الصاعقة القاضية للرومان والجرمان تدعمنا الآلهة.

سأسكتهم للأبد وأروي أرض أوروبا بدمائهم، لينبت من عفن أجسادهم المذبوحة الصبار، سأريهم من هم قبائل الهون، وسأعيد بث الرعب في قلوبهم لمجرد ذكر اسمك "أتيلا"، لن أسمح لنزاعي مع إخوتي على السلطة بتقويض مملكتنا، لن تضعف الإمبراطورية وتقطع إربا، يكفيني حمق الجميع ومقارنتهم حالة الجيش في عهدك وحالته الآن بسبب تنازعنا على الملك، غدا سيولد "أتيلا" من جديد.

انتهت

"سبحان المعز المذل" هذا ما تبادر إلى ذهني وأنا مطارد شريد في بيت كردي بسيط، زالت هيبتي وسطوتي، لم يتبقَّ غير اجترار الذكريات، لهذا وقبل أن أذهب في جولة أخرى من رحلة الهلاك السائر فيها منذ سنوات، ناديت على ابن صاحب الدار وحاولت إقناعه بالذهاب في مهمة خاصة لأجلي، رفض لثأر بيني وبين الأكراد، منحته صرة من الدنانير الذهبية فوافق، سيقنع والده أنه ذاهب للتجارة مع بعض أصدقائه ويبحث عن ابن أختي "محمود" عندما يعثر عليه يخبره عن سقوطي في بئر التخاذل بعد ضياعه، عن غمري في بركة وحل ضياع البلاد؛ عن أنه لولا اختطافه لبقيت أقاوم، لقد كنت أحوز ملك الدنيا ولكنني ضيعته، بل ضيعنا جميعًا والدي...

– والدي هل هذا أنت؟ يبدو أنني بدأت أجن أكثر، كنت في البداية أرى طيفك كل فترة طويلة الآن أراك دوما جواري، يا الله انظر أبي ما وصلت إليه، لله درك والدي، لولا موافقتك نائبك قبح الله أثرة لكانت البلاد الآن في أمان، مد جنكيز خان يده بالسلام وأوفد التجار بما لا يعد ولا يحصى من الأموال للمتاجرة، لكن عِندك أورثك الكفر.

عقد الطيف حاجبيه في قسوة مجيبًا:

– كان علي أنا السلطان علاء الدين خوارزم شاه سادس سلاطين دولة الخوارزميين، إصدار مرسوم يبيح قتل تجار التتار الموفدين وسلب أموال تجارتهم، كما أشار نائبي في مدينه الاترار.

هب "جلال الدين" مقاطعًا:

– بل نائب عزرائيل، قامت الحرب بيننا بسببه مشورته الغبراء تلك، لم تخمد نارها بعد كل هذه السنوات الطوال، خسرت كل شيء بسببها وبسببه، ليتك خليت بين جنكيز خان ونائبك الأخرق، لكن كيف يكون هذا؟! أججت غضبه أكثر، بجوابك

عليه أن الأمر تم بعلمك ولا علاقة متبادلة بين الدولتين إلا علاقة السيف، ها هو قد حول أجساد المسلمين من نهر جيحون إلى بلاد الشام إلى قناديل تضيء ليل انتقامه الطويل.

أشعلت الحرب وألقيتني في آتون سعيرها، فقط في الخراب تتذكرني، استمعت إلى والدتك، "تيركين خاتون"، وجردتني من حقي في ولاية العهد ووليت أخي الأصغر "كتب الدين أوزلاغ شاه"، تلك العجوز الشمطاء المتسلطة، الحانقة على الدوام مني لأنني ابن "آيتشي تشيك"، والتي تعايرني بسماري المختلط بالصفرة الهندية الآتية من أمي، متفاخرة بجمال صورة وبشرة أخي الأصغر لأن والدته تركية من نفس قبيلتها.

أدار الطيف ظهره وهو يجيب:

– نعم أذكر دوما كانت تقول لك، "جلال اغرب عن وجهي تذكرني بتلك الصفراء أمك ابتعد عن طريقي، ما هذا؟!، هل تقلد النساء بارتداء طرطورًا من شعر الخيل المصبوغ بكل هذه الألوان؟!، صغيري عندما تسمع بوجودي هنا؛ لا ترني وجهك"، كنت تستفزها بهيئتك.

ركن جلال ظهره على الحائط بعدما جلس على الأرض وهو يكمل الحديث مع طيف والده الميت:

– مرت الأمور من سيئ إلى أسوأ، لتقع في الأسر الجدة "تيركين خاتون" وزوجاتك الأخريات وإخوتي منهن، يومها تساءلت كيف ستفوض على حياتهن بعدما قطعت كل وسائل الاتصال بيننا وبين التتار؟!، كيف ستنقذهم بعدما حاصرونا على جزيرة نائية في بحر قزوين أيها البطل المغوار؟!

صرخ فيه ليوقفه:

– لا تلمني لقد مرت علي الساعات تنهش في دون هوادة، لم يرحم الوقت ضعف قواتي ولا ضياع هيلماني!، ذبلت عينيي وانزوى جسدي في انتظار خبر يطمئننا

على أسرى العائلة، حتى وصلني خبر ذبحهم جميعًا وتشويه جثامينهم، أتدرك كم شعرت بالقهر والانكسار حينها، كم شعرت بالذل والأيام تمر وكل ما أحصل عليه هزيمة تلو هزيمة، مدن تتساقط كما قطع شطرنج، فقدت صحتي لكنني ظللت أقاوم فربما هناك أمل، زادت الكوارث لذا جمعتكم وأنا على فراش الموت لأنقذ ما يمكن إنقاذه..

ضحك جلال في سخرية وهو يتذكر الموقف:

– قلت لنا، لا يقاطعني أيًا منكم حتى أفرغ من حديثي، أولادي اليوم أعلن وصيتي الأخيرة، "من يستطيع الانتقام لي هو جلال الدين، لهذا أعينه ولياً لعهدي، وعليكم طاعته"، لم أصدق أذني، الآن تذكرتني، لم يعترض إخوتي "آق شاه" و"أوزلاغ" وبعدما أتممنا مراسم الدفن، انطلقنا إلى خوارزم، وهناك جمعت ما يقارب السبعة آلاف فارس من أهلها، لم أكن أعلم أنهم موالين لأخي "أوزلاغ" فتآمروا على قتلي لإعادة السلطة إليه لولا أن أحد القواد أبلغني بالأمر، هربت إلى مدينه "نسا" في الطريق حاربت فرقة من التتر وهزمتهم، فعاودوا الكرة لكن إلى "خوارزم" ففر أخي وقتلهما جوار "خراسان"، هذا هو إرثي منك.

قاطعه الطيف:

– ليتكم تجمعتم على عدوكم وهزمتموه بدل قتل بعضكم البعض.

أسرع جلال يعقب على نصيحته التي أتت في غير وقتها:

– وهل كنت أنت حكيما هكذا وقت أثرت الحرب، حاولت إنقاذ ما يمكنني مثلك، فلقد كنت الفارس المغوار، بطل الأبطال أخرج من نصر إلى نصر آخر، هزمت التتار خارج "غزنة" كان كل شيء يبشر بالخير لكن ما أضعف جيشي هو الطمع، فتنة الغنائم، لقد تكالب قواد الجيش عليها، كلًا منهم يرغب في نصيب أكبر من الآخر، حينها دبت الفتنة في صفوف الجيش وتفرق عني قسم كبير من الفرسان، وصلت الأخبار إلى "جنكيز خان" واستغلها كما يجب أن يكون الاستغلال فـ"الحرب

خدعة"، أرسل جيشا كبيرا لا قبل لي بمواجهته في ظل هذه الظروف العصيبة، اضطررت للفرار نحو بلاد الهند، أوقفني عن عبور النهر إلى السند عدم توافر السفن لنقل الجند..

سأله والده بلهفة:

– ماذا حدث؟

أغمض عينيه وهو يجيبه:

– مر الليل بكآبته بطيء يحرق أعصابنا الخوف مما هو آتٍ وتوقع كل ما هو سيئ، كيف أواجهه الجيش القادم وجنودي مرهقين يعانون التعب والجوع ويحتاجون للراحة بعد ما وجهناه من معارك قوية الأحداث، مع إشراقة شمس يوم جديد حوصر جيشي بين ماء نهر السند ونار الجيوش المنتصرة للسموات السبع كما يدعوها "جنكيز خان"، التزمت الهدوء وحاولت بث الطمأنينة في قلوب الجنود، نظمت الصفوف وحددت لكل قسم ما سيفعله في المعركة التالية، أفهمتهم أنها معركة "حياة أو موت"..

كانت شعيرات جسدي تنتصب كما الأشواك، الدماء لزجة داخل أوردتي، ترقب، خوف، انتظار مرعب، ثم انقضوا على المقدمة كأسد غضنفر يتضور جوعًا، مزقوا جنودي إربا ليغطوا الأرض بدمائهم ويزرعوها بأشلائهم، فر "أمين مالك" قائدهم تجاه "بيشاور" ولكنهم لاحقوه وقتلوه، وتمكنوا من سحق قوات الميسرة، لم يتبقَّ غير القلب بقيادتي، ثلاثة أيام نحارب حتى حاصرنا طوق جيش التتار الساحق، ازداد صهيل الأحصنة ينافسها صوت اصطكاك السيوف بالأجساد لتمزقها، غطى الغبار سماء المعركة.

– انتصرتم؟

سالت الدموع من عينيه وهو ينظر بانكسار نحو والده، ويجيب في ضعف ووهن:

– أيبدو علي أنني قائد منتصر، بل انقشع غبار المعركة في النهاية على واقع هزيمتنا المنكرة، اضطررت لنزع الدرع والتراجع بعدما أرخيت عنان الجواد ثم ضربته بالسوط ليعبر النهر وخلفي الجند ممن استطاع النجاة من المجزرة، صُمّت أذني من ضجيج تلاطم أمواج النهر المختلط بدماء جندي، عبرنا إلى الضفة الأخرى بعد معاناة، وقفت للاطمئنان على جندي وأبحث عن عائلتي، ليصدمني مشهد مروع..

طفلي ذي الثامنة أعوام، يقف على الجهة المقابلة خلفه "جنكيز خان"، ناداني وبكل هدوء لف عنق الصبي بيده ليخر على الأرض صريع، صرخت جواره أمي وحريمي، ارتموا على الأرض باكيات متوسلات أن يقتلهن ليخلصهن من الأسر، فأغرقهن أمام عيني، تحجرت دموع عيني وأنا أراه يغرقهن واحدة تلو الأخرى على مهل ليزيد من قهري.

صرخ فيه الطيف:

– يا خسيس، يا لسوء نفسك، لماذا لم تعبر إليهم لتنقذهم أو تموت دونهم، جبان، رعديد.

صرخ فيه بدوره:

– اصمت، من أنت لتوجهني، حتى وإن حاولت عبور النهر وتجاوزه لأعود إليهن ما كنت سألحق آخرهن، حينها شممت رائحة احتراق قلبي، لأسقط على الأرض راكعا في قهر، حتى ولو حققت النصر وهزمت التتار ودحرتهم لأفنيهم عن بكرة أبيهم ما استطعت إطفاء جزء بسيط من هذا النيران المستعرة داخلي كما حيات ثائرة، تخيلت نظرة التشفي داخل عيون "جنكيز خان" وأنا أراه على الجانب المقابل لي من النهر، يصرخ في أولاده..

"هيا دعوة، لقد عادت هيبتنا، هذا ابن أبيه، خرج من خيوط عنكبوت جيشنا إلى شاطئ الأمان، سيكون ممتلئ بالغضب الآن وسيعود للانتقام، حينها سنستقبله خير استقبال ليكون عبرة لكل من يتجرأ على الوقوف في وجهنا".

بصوت خافت أضاف طيف والده:

- هربت؟

طأطأ رأسه مجيبًا:

- نعم، توجهت إلى الهند مع فلول جيشي الأربعة آلاف، حفاة، مقطعي الملابس، في هيئة من خرج من القبر، أو واجهه أسد وهرب من بين براثنه في اللحظة الأخيرة.

حرك والده رأسه في أسىً قبل أن يُسمِعه رأيه فيما حدث:

- لا يعجبني الأمر ولا تصرفك.

لم يهتم جلال لكلماته وواصل يقص ما فعله:

- ولا أنا خاصة عندما اضطررت لفرض الأتاوات على أهل البلاد وإلا خربت وجيشي مدنهم ودمرتها عن بكرة أبيها، مرت ثلاث سنوات استطعت فيها جمع جيش كبير من المتطوعين ومن أهل البلاد ومن المواليين لي، وبعض الفارين من المواجهات مع جيش المغول بالإضافة إلى قادة الخوارزميين، كنت أقوم ببعض المناوشات التي أجمع خلالها بعض الغنائم، حتى طالبني حكام السند بمغادرة البلاد، احتدم الأمر بما لا يتسع له الوقت، كما لا يمكنني تشتيت الجند في حروب لا داعيَ لها، موثرًا للسلامة عدت إلى "خوارزم".

ابتسم بسخرية وشماتة وهو يقاطعه متهكمًا:

- بالطبع طوردت وطردت من كل مكان كنت تمر به بالنظر إلى حالتك هذه؟!

نظر جلال نحوه في صرامة تنفي علاقة الأبوة بعد تعقيبه المهين عليه، أجابه في امتعاض:

– لم لا تثق في؟، لقد فعلت في الطريق استوليت على ملك "كرمان" ثم "أصفهان"، وأعدت ما احتله أخي "غياث الدين" من فارس إلى صاحبها "أتابك سعد"، ثم حاصرت مدينه "تستر" في "خوزستان" لكنني لم أستطع فتحها، فأرسلت نصف الجيش على البصرة والآخر إلى بعقوبا لأسيطر على عراق العجم وفارس وكرمان وأذربيجان وتبريز وتفليس.

أومأ الطيف برأسه مشجعًا على إكمال السرد، لكن الابن شحب وجهه وهو يتحدث بنبرة هستيرية، والظنون تتخبطه حول كل شيء، شعر جلال بجسده يقشعر وهو يخبر والده عما حدث:

– كنت وسط قوم يتمرغون في الرماد، يصرخون بمرارة الظلم ثم يغمسون طعامهم فيه، الخيانة يعلقونها ثريا فوق رؤوسهم، يبكون نحيبا مرًا وهم سبب الخيبة، ما أضعفني كان قيام أبناء طائفة الإسماعيليين بنقل أخبار الجيش إلى التتار، انتقامًا من حصاري قلعتهم "قلعه الموت" ثم قتالهم لاغتيال أحدهم أمير مدينة "كنجة".

اضطرب وجه الأب وهو يتوقع ما حدث برؤية مشوشة ليهمس:

– ليتني ما جئتك.

شعر جلال بتشوش رؤيته، يشعر أن قدره محتوم بالقتل غدرًا لكن كيف سيكون الأمر لا يعلم، لكنه يشعر بذلك، حاول جمع شتات نفسه ووجهه يزداد شحوبًا، تحشرج صوته وهو يعود للحديث مع من يقف أمامه، فَيْنَةً يراه طيف والده و فَيْنَةً يراه صبيا آخر لا يعلم من هو، أغمض عينيه وعاد يسرد ما مر به:

– اسمعني أيا كنت أنت، كانت لدي فرصة، لقد استوليت على أرمينية بعدها بعام، بسطت نفوذي على بلاد متعددة مما أثار حفيظة جميع الملوك والحكام وخوفهم من استيلائي على ما لديهم، أما سكان المدن فقد زاد سخطهم علي وعلى جيشي بسبب التصرفات الشاذة الصادرة من أفراد الجيش، ربما علي الاعتراف أنهم مجرد أوباش انضموا للمحاربة معي مقابل الحصول على بعض الغنائم، هم خير مثال

على الشر والفسق والضلال والعتو في الظلم، يمارسون النهب كما جياع سقطت بين أيديهم كسرة خبز، تفشى بينهم اللواط والغدر وعدم الأمانة، كانوا يقتلون لأجل القتل وسلب ما مع القتيل.

انفض كثير من الأتباع بسبب كل هذه الموبقات داخل جيشي، ومع هذا عندما توجهت لملاقاة جيش التتار بقيادة ابن "جنكيز خان" هزمته ودحرته ليعودوا أدراجهم، فعاد لملاقاتي عند نهر السند جيش بقيادة "جنكيز خان" شخصيًا فناله مني ما نال ولده، يا للبهجة كنت قاب قوسين من حلم العمر والانتقام منه، لكنه كمن لي مما أربك الجيش ليفل الجنود إلى "غزنة" فاضطررت للتوجه إلى "كرمان"، لا أنكر كرم ضيافته ولكنني اضطررت للغدر به والاستيلاء على ملكها.

نظر الشاب بلؤم نحوه يلومه بنظراته، فهمس جلال في تخاذل:

– من أنت؟، أين طيف والدي آه أذكرك أنت من سيبحث عن "محمود"، الحرب خدعه، كان علي فعل ذلك لأنجو!

حرك الشاب رأسه قبل أن يطلب منه أن يكمل قصته، زفر جلال وهو يتعرق من فرط التعب، شعر بأن الحمى ستمسك بتلابيب جسده، مشط المكان بعينه ثم شخص ببصره إلى السقف، فاض به الكيل واكتفى من هذه الحياة، حياته بشعة الأحداث، يقشعر مع كل ذكرى ليشعر بقلبه يحترق هلعا على كل من قتلوا من أحبابه، خسائره فادحة، مأساة زجه فيها والده بتصرف واحد غير مسئوليته حينها تنحى جانبا وترك العقل يتصرف، ألقى بسبة بذيئة بغتة قبل أن يردف:

– أتعلم أيها الشاب، كان علي الفرار لأستطيع الاستمرار في تلك الحرب الغير واضحة النهاية، لذا توجهت مع فلول جيشي على ظهر بقر وحمير إلى "شيراز" ومن لم يجد دابة سار وراءنا، توالت بعدها هزائمي حتى وقع "محمود" في الأسر، سمعت أنه قاوم كما أمير خوارزمي.

هتف الشاب:

– لمَ لم تستمر في البحث عنه بنفسك؟
ضحك جلال بقوة وفي صوت يملؤه الجنون:
– الحكمة تستدعي فعل ما قلت، لكن حالة اليأس أسقطتني في السكر، طيلة الليل أبكي على أطلال بقيت دون أهلي، هزمني إمبراطور الروم ثم ملك دمشق، واستغل التتار الفرصة واحتلوا مدينة الرأي ثم همذان و"أذربيجان".
لم يكن أمامي مفر سوى الهروب إلى "آمد" لكنهم لاحقوني ودخلوا "إربل" و"دقوقا" وسلبوني كل ما كان يقع تحت يدي من بلاد، طلبت النجدة من بلاد المسلمين لكنهم رفضوا خوفًا من استيلائي على ملكهم، الخيانة جاءتني راقصة من بين أهل بلادي؛ "الإسماعيلين"، لا يخجلون من فعلهم يبررون موقفهم بأنني البادئ عندما قتلت أهلهم وذويهم لتثبيت سلطاني، وصلت إلى "ميافارقين" وأمرت "أورخان" بمشاغلة التتار حتى أصل إلى جبال كردستان وأطلب المساعدة.
قاطعه الشاب:
– أعرف الباقي، عثر عليك والدي مصابًا وأحضرك للدار، يساعدك رغم اتهامك لنا بالخيانة، يساعدك معرضًا نفسه للخطر إذا عرف أبناء الطائفة أنه يساعد من أعمل فينا القتل، أتسمع هذه الضجة؟!
هجم شخص قصير، ممتلئ الجسد، ذا بنية قوية، ملامحه قاسية شرسة، صرخ وهمّ يهجم على جلال:
– إذن أنتَ السلطان "جلال الدين"، أنت من قتل والدي وأخي، ستنال الآن ما تستحقه أيها الجبان الحقير.
صرخ الشاب فزعًا:
– عم "مسعود" ماذا فعلت، لقد أصابته حربتك في مقتل.
في سعادة وتفاخر أجابه:
– ليتها انغرست في قلبه لا نشبت بين أضلعه فقط، الآن أخذت بثأري..

انتهت

"مفاجآت مونزا"

جو مهيب، قاعة فخمة تعج برجالٍ ونساءٍ من عِلْيةِ القومِ، طاولة تجمع حولها ثنائيات رجل وامرأة يلعبون الورق بتركيز وانتباه شديدٍ، الكل يتودّد لمن يجلس على رأسِها، يشوشون أفكاري، أسايرهم بتحريك رأسي والابتسام كيفما تفتق، مستغرقٌ في التفكير عن حياتي وبؤسِها:

- حفلات.. حفلات، لقد سئمتُ الأمرَ، لا أستطيعُ الصبر حتى أُفتتِح الحفل الرياضي غدًا ثم الذهاب لزيارة كاتدرائية "مونزا" ربما أطلب منهم العودة إلى إيطاليا عن طريق سكة حديد ميلانو مونزا، ستكون مغامرة شيقة، ألا يكفي أنني أسافر من مدينه لأخرى كي يرضى عني الشعب.

الجميع يردد:

"أنت الملك وعليك التقرب من رعيتك ليعشقوك أكثر؛ فيؤلهوك؛ بالتالي يبقون على ملكك ويحافظون على ولي العهد وعلى كرسي العرش حتى حفيد الحفيد المائة"

يا ربي، تبًا للجميع، تصرفاتي جميعها بحساب!، متى أمارس ما أريد فعله كما يحلو لي؟!، كلّ شيءٍ مرفوض وغيرُ مباحٍ أو قد يصلُ لعلم الرعية فتفقد مصداقيتك مولاي..

مولاي، يا للسخافة؛ من مولى من؟!، هم من يجب أن أناديهم مولاي، ما هذه الحماقة!! أوف علي أن أمنح المحيطين بعض الابتسامات؛ لا أريد أن يلاحظ أحدهم بغضي للجلسة.

أشرت إلى مساعدي "دي كامب جن" ليقترب، هو ليس مساعدي فقط؛ بل خادمي وكلبي المطيع، تدرب على إرضائي بشتى السبل، ساعدني عدة مرات على الانطلاق وسط مغامراتي العديدة، يغطي غيابي بطريقة جيدة، ويستطيع إخفاء أثري عندما أذهب في مغامرة سرية، قرب أذنه اليسرى مني مبتسمًا مبديًا فروضَ الطاعةِ والولاءِ، همست قريبًا منها:

– إلى غرفتي أريدك في أمر مهم.

انحنى بوجل ورسمية يستدعيها الموقف:

– أؤمر مولاي.

أكرة كلمة مولاي، وقفت في شموخ وغطرسة، تأففت وأنا أنظر حولي في ضيق وأمسك بمعدتي، ودّعت الحضور بدبلوماسية لإصابتي بوعكة صحية، سمعت تمنياتهم بالشفاء و.. و.. كلمات فارغة، عدت إلى غرفتي وقلبي شديد الابتهاج بهذا الفرار الدبلوماسي، انتهزت إغلاق "دي كامب" الباب، وانطلقت شارحًا ما أنتوي فعله، وجْهُهُ البائسُ عبّر عن مدى قلقِهِ، بل ربما المعنى الصحيح مدى رعبه، مما أنوي فعله هذه المرة، أشرت له سامحًا بالحديث فقال بصوت هامس متلجلج:

– مولاي الأمر خطير، هناك فوضى تعم المدينة، الثائرون يملئون الشوارع، والخروج الآن دون حراسة أمر خطير جدًا، أخاف على حياة مولاي من تبعات ذلك.

لم أشعر إلا وأنا أصيح فيه بغضب:

– "دي كامب" اخرس لقد قررت الخروج، لن أقضي سهرتي هنا داخل أربعه جدران صماء، هيا اذهب وأحضر ملابس التخفي، سنتنكر جيدًا ثم ننطلق بين أروقة المدينة، لن يتعرف علينا أي شخص وستمر الليلة بسلام كالعادة ما الجديد؟!، بعد أن نحصل على متعتنا كاملة سنعود، سأجعلك تعيش معي ليلة كما جميع أفراد هذه المملكة البائسة بلا رسميات ولا وجوه زائفة الابتسامة.

حاول النطق ليمنعني كعادته، لكنني صرخت فيه:

– اذهب ونفذ فورًا.

ذهب المسكين في استسلام، هذا ما يعجبني فيه، لقد قربته بعد أن ساعدني عدة مرات وبعدما لاحظت إخلاصه الشديد لشخصي، وولاءه التام، ينفذ كل ما أريده

دون أدنى اعتراض، يفهمني من مجرد نظرة عين، قد يبدي بعض الملاحظات ولكنها تظل تحت بند كلمات جوفاء حتى أوافق عليها، أسراري في مأمن بحوزته، يمكنني مطارحة الغرام لنساء مدينه كاملة دون أن أخشى وصول معلومة لأسماع الملكة، حوائط المملكة كلها أذان مصغية تتلهف لسماع أي خبر عني أو أي أشاعه قد تسيء إلى شخصي الملكي.

لازلت أذكر تلك الباريسية القوام، بيضاء البشرة كما لبن سكر بالعسل الأبيض، مغنية في الأوبرا، صوت رائع وجسد أروع، جنت من حبي حتى شاع أمرها، المجنونة كانت لا تتواني عن فعل أيه حماقة لتجعلني أذهب وأرتمي في أحضانها.. أوه، تلك المثيرة كانت تبكي بحرقة وهي تتهنه بكلمات العشق:

"في البدء عزيزي، مولاي، أحبك أما بعد، أيها المشاكس، لديك مكانة عالية في قلبي، لكن لا تتدلل كثيرًا فقلبي ضعيف لا يحتمل صخبك، وأخاف أن أموت إن سقطت منه بطيشك هذا، لا تبعد عني كثيرًا هكذا"..

مرت ليالٍ طوال علينا، سقتني فيها العشق كؤوسَ نبيذٍ معتقٍ، لكن في النهاية كان علي تفضيل مصلحة الوطن، لقد أحسن "دي كامب" التصرف وأخفاها من هذا الوجود لتريح وتستريح، كانت تهددني وتعتقد أن بإمكانها زلزلة قوائم عرشي، ملعونة تلك الجميلة.

آووه، لا وقت لذكرياتي اللذيذة، علي الاستعداد لمغامرة جديدة، ما أحلى الحياة كملك حقيقي لا رئيس بلاط في زِيّ ملك يخشى رعيته، ستكون ليلة ليلاء يا "دي كامب" ستظل تذكرها لسنوات بينك وبين نفسك وتشتهى لو لديك فرصة بسيطة للتفاخر بما سنفعله هنا، "مونزا" مدينه هادئة كئيبة ليلها ضبابي، لكنها تغويني لممارسة الجنون بشكل يغطي على بؤس المملكة وإدارة شئونها، أوقف أفكاري صوت طرق على الباب سمحت له بالدخول، تنحنح وهو يقف بوجل قبل أن يخبرني:

– مولاي، أحضرت ملابسا رسمية وسندعي أنك يا مولاي، موظف بنك بمدينه ميلانو، جئت في زيارة عمل قصيرة.

صفقت في فرح كما طفل صغير أهدته أمه لعبة جديدة:

– لا مانع، سأنتهي من ارتدائها سريعًا؛ ثم تساعدني في تغيير هيئتي وملامحي.

مع أول بزوغ للضوء، كنت قد انتهيت، تسللنا من أماكن سرية اكتشفها "دي كامب" كما اعتاد أن يفعل في أي مكان نذهب إليه، خرجنا متوارين دون أن ينتبه الحراس، تمشينا قليلًا، شاهدنا البحر ثم عدنا ثانية إلى داخل المدينة لتناول الغداء.

اخترت أول مطعم قابلنا لأن واجهته تبدو عتيقة الطراز جذبت انتباهي، ما أزعجني أنه شديد الازدحام لدرجة الضجر، جميع من فيه كان يعمل بجد وفي سرعه تثير الاستياء..

أشار "دي كامب" على طاولة في الزاوية الداخلية للمطعم، فانطلقنا سريعًا قبل أن يحتلها غيرنا، تناولت قائمة الطعام ومررت عليها بعيني سريعًا مقررًا في عجالة ما سأطلب، أشرت للنادل؛ فلم ينتبه مما اضطرني لسلوك تصرف غير لائقٍ بالمرة، قمت باستخدام فمي لأصفر له، انتبه كل من في المطعم؛ جذبت انتباه شخص منمق حضر ليأخذ طلباتنا، انحنى وعلى وجهه ابتسامة ودودة قائلًا:

– عذرًا يا سادة فغدا حفل رياضي سيفتتحه جلالة الملك شخصيًا والمدينة تعج بالسائحين، أنا صاحب المطعم ويسرني خدمتكما بماذا تأمران؟.

فقدت القدرة على التحكم بردود أفعالي وقسمات وجهي عندما انتبهت للمدير فشهقت فزعًا على غير عادتي وأنا أصرخ:

– يا إله السموات، يا للجحيم!!

تجمد "دي كامب" وشحب وجهه حتى ظننت أنه قد توقف عن التنفس، نقلت نظري بينه وبين صاحب المطعم يا أيها الرب الرحيم، هل هذا معقول!!

الصدمة كانت متجلية على ملامح صاحب المطعم بالمثل، سقطت في نوبة ضحك هستيري، لم أستطع التوقف والاثنان ينظران إلي بملامح يتعارك فيها المرح بسخرية مع الصدمة بفزع، وفي النهاية انتصرت الغرابة ومشاعرها، لنغرق ثلاثتنا في نوبة الضحك، قلبي كاد يتوقف، أشير إليهما ليصمتا لكن كيف ذلك وأنا شخصيًا غارق حتى أذني في هذه النوبة العجيبة، يا إله السماوات..

الرجل يشبهني إلى حد بعيد، بل يشبهني إلى درجة تفزع وتريب، نفس الملامح، نفس الجسد والهيئة، حتى شاربي الكبير الذي أحافظ عليه كما حياتي لديه توأمه، ألجمتنا المفاجأة واكتفينا بالضحك، في حين تدور طواحين الأسئلة داخل رأسي ببشاعة لتفصص تلافيف مخي بلا هوادة، فضولي يقتلني لمعرفة من هذا؟

ما هي حكايته؟!

هل هو توأم ضاع منذ الصغر لم يحكوا لي عنه؟

أهو أخ غير شرعي؟!

أيجب أن أخشى على عرشي؟

هل أسئله عن والده الحقيقي؟ ربما لم تخبره أمه حقيقة أمره!

علي البحث والتقصي بجدية، ربما أبحث عن خازن أسرار والدي، حاولت قدح زناد فكري، حسبما أذكر لم يخبرني أحد بموته.

تبادلنا النظرات الحائرة، هدأت أنفاسي قليلًا بعد مرور لحظات، طلبت منه الجلوس ومشاركتنا الحديث، لا داعيَ للطعام فقدت شهيتي لننسى أمره، ليقص علي حكايته، لم يمانع، بدا عليه الاستمتاع مثلي بالأمر.

أخبرته أنني موظف بنك في ميلانو، جئت في زيارة لرؤية الملك أثناء الافتتاح، بقينا نتناقش في العديد من الأمور التي تثيرني ونتبادل الأحاديث فكان يفاجئني بإجابته وما أجمعه من معلومة عنه، اللعين كان توأما متماثلا، لا أعرف كيف؟!،

لو كان يعرف من أنا أو أنني قادم، لظننت أن الأمر مدبر من أحد خصومي، لكن كيف.. كيف؟!

لقد ولد في نفس مدينتي يوم ١٤ مايو ١٨٤٤، له نفس الاسم "أمبرتو" تزوج يوم ٢٢ ابريل ١٨٦٨ ملكتي اسمها "مارجريتا" وهو كذلك، حتى ابنه البكر يدعى "فتيريو" كما ولى عهدي المصون، الأكثر غرابة كان افتتاحه مطعمه هذا في نفس يوم توليتي عرش إيطاليا، يا لرب السماوات احفظنا، ظل يخبرني عن نفسه وأنا أغرق من صدمة لأخرى أكثر وأكثر.

ما حكمتك ربي في هذه الفوضى؟!

كيف يماثلني شخص كهذا إلى هذا الحد، تملكتني مشاعر الحنق والغرابة من كل ما أسمع، فرغ من حكايته وحكيت له قصة مبتورة مزيفة عني ثم تركته ينصرف بعدما أصر أن وجبة الغداء على حسابه، لم أرفض وشكرته على كرم ضيافته، اكتفيت بهذا القدر من المعلومات وتركته يمضى ليجهز لنا وجبتنا، عندما ابتعد بالقدر الكافي، أمرت مساعدي أن يدعوه لحضور حفل الافتتاح غدًا فسأحتاجه بالتأكيد في أمور كثيرة، على أن يستقبله قبل أن يدخل ويأتيني به.

تملكتني السعادة للفكرة التي جالت رأسي، سيكون حصاني الفائز، أخيرًا سأنطلق وأعيش حياتي وأعوض سنين عمري المكبوتة طيلةَ خمسٍ وخمسين عامًا، تناولنا الطعام و"دي كامب" واجم وملامحه تشي بتوتره مما يعلم أنني أخطط له، شكرت مضيفنا لدعوته الكريمة مرة أخرة.

منحه "دي كامب" بطاقتين لحضور الحفل الرياضي على أن نلتقي هناك، فوافق على مضض بسبب انشغاله، ودعناه وذهبنا لنكمل جولتنا، تمشينا قليلًا ثم عدنا بعدما تملكني الملل، يكفي ما حظيت به من إثارة في هذا المطعم الصغير، غدًا سيكون يومًا حافلًا بجميع المقاييس.

خرجت في الموعد مع مساعدي يحيطني الحراس، الاستعدادات لبدء الحفل الرياضي على قدم وساق، سيكون ٢٩ تموز ١٩٠٠ يوم فارق في التاريخ هكذا توقعت، الكل يبدو عليه التوتر، همست لمساعدي سائلا عن شبيهي فحرك كتفيه بارتباك، التوتر يتملكه بطريقة ملحوظة، أعدت سؤالي في غضب وهددته بالعقاب فأخبرني:

- مولاي يبدو أنه لن يأتي، لقد.. لقد أصيب بطلق ناري صباحًا في شجار داخل مطعمه، وأنه..، لقد..

شعرت بالضجر من تلعثمه فصرخت بصوت مسموع انتبه على أثره من حولي:

- ماذا حدث، هل هو مصاب بشدة؟!

ألقى إجابته ثم غطى فمه بكفيه المرتعشين:

- لقد توفي منذ لحظات قليلة.

اقشعرّ جسدي وشعرت بالترنح، اقترب مني يسندني لأهمس غير مستوعبٍ قوله:

- لا.. لا أصدق، تكذب لترعبني "دي كامب" أخبرني أن هذه مزحه سمجة منك أو منه لا يهم، المهم أنها مزحه سخيفة.

طأطأ رأسه دون أن يتفوه بكلمة، دق قلبي حتى سمعت صدى الصوت بأذني، تمتمت بكلماتي محاولًا جعلها هادئة النبرات:

- لا تنظر إلى الأسفل ببؤس هكذا!! اللعنة، اللعنة عليك وعليه وعلى الليلة التي رأيته فيها، يا للمأساة!!، ماذا علي أن أفعل لقد كان الرجل يسبقني بساعات في كل أمر من أمور حياتي!!

انطلق يهدئني:

- لا تقلق مولاي، لن يحدث شيء لجلالتك أنت في مأمن هنا، لن نسمح بحدوث مكروه لجلالتك مهما كان الثمن.

ارتعبت حد الجنون، كل ما في يرتعش، تلفت حولي وأنا أتحرك بلا هدف صارخًا في الجميع:

- يا حراس، يا حراس، أغلقوا المكان، لا تدعوا أي شخص يقترب من مجالي، كل من يقترب اقتلوه في الحال

جذبت "دي كامب" من ياقة قميصه ليلتصق بي وأنا اصرخ فيه:

- كن قربي؛ اللعنة لا أريد أن أموت، لا أريد الموت الآن.

صرخت على حارسين ليقتربا:

- أنتما هناك تعالا معي، "دي كامب" سنذهب، سنغادر الآن، لن أبيت في هذه المدينة أبدًا.

اقترب يحدثني بنبرة حاول بها بث الثقة والطمأنينة داخلي:

- مولاي أنت في أمان هنا، لنبقى بالداخل تحيطنا أعين حراسك الأوفياء، إن حاولت بعوضة الاقتراب ستقتل فورًا، ثق فيهم وفي.

ما الذي يقوله هذا الأخرق المعتوه، أية ثقة مع الموت، صرخت فيه بعناد:

- بل سنهرب من هنا، هيا معي..

خرجت يحيط بي الحراس من كل ناحية مكونين دائرة، لن أسمح لأي كان بقتلي، لن أسمح للموت بخطفي الآن، سأعود إلى عرشي، أجلس بجوار ملكتي الجميلة، سأخونها مع ألف.. ألف واحدة دون أن أترك خلفي ما يجعلها تكتشف ذلك، أو لتكتشف لا يهمني، لن أتنازل عن رفاهيتي لأجل الموت..

سمعت صوت يناديني بقوة:

- "أمبرتو" أنظر تجاهي "أمبرتو"

همست لنفسي:

- يا للجحيم، من ينادي علي باسمي مجردًا، من هذا الوقح الـ

آه حريق يغمر صدري، ما كل هذا الوجع؟!

أمسكت بصدري وأنا أرى فجوة سوداء تتوسطه، ظهرت من العدم لتؤلمني، دمائي الملكية الحمراء تخرج منها، لقد أطلق علي الوغد نيران بندقيته، قبل أن أرفع رأسي نحوه شعرت باختراق ثلاث رصاصات غادرة أخرى موجهة نحو صدري، الحريق يزداد، يتشعب ليعطل سير أنفاسي، دمائي تغرقني، صرخت:

- "دي كامب" انجدني لا أريد الموت، اقتلوه وأنقذوني.

لم يستطع الفرار، قبض الحراس عليه، عندما سمعوا كلمتي وجهوا مسدساتهم نحوه؛ ينتظرون إشارتي لإطلاق نيران بنادقهم نحوه، صرخ بلا مبالاة:

- تذكر اسمي "أمبرتو" وأنت تتعذب في الجحيم، تذكر اسم قاتلك "غايتانو بريشى" الثائر، بيدي أنهيت عهدك الملكي في إيطاليا، أنهيت قيد الإقطاع وحررت إخوتي.

أشرت بكفي فأطلق الحراس الرصاص عليه، سقط أمامي مضرجًا في دمائه، همست في أذن "دي كامب" الباكي جواري:

- لقد كان لقائي بشبيهي لقاء نحس وشؤم "دي كامب"، قتلني هو قبل أن يقتلني هذا الوغد، تأكد من موت هذا الفوضوي "دي كامب" اقتلـ..

اسودّت الدنيا حولي، أظلم كل شيء، اختفي "دي كامب"، الحرس، الشارع، والسماء..

انتهت

"أطول لحية"

– سيد "ستينينجير" لا يمكنك الاستمرار في العمل بهذه اللحية الطويلة، عليك تقصيرها لا يجوز أن تتركها لتصل متر ونصف هكذا!!

– ستتعرض للمشاكل مستر "هانز"

– أوه انظري "ليندا" إلى هذه اللحية، كيف يسير بهذه الهيئة؟، رجل غريب!!

– "هانز" هل تعوض قصر قامتك بإطالة لحيتك؟، لم أربيك على هذه التصرفات الغريبة الشاذة، هيا اذهب ولا أريد رؤيتك في بيتي قبل أن تقصرها أو تهذبها إلى طول طبيعي.

ها أنا ذا أنظر في المرآة وأراها جميلة، أوف للجميع، مديري، زملائي، أمي الكل متفق على السخرية من لحيتي وطولها، أحبها بهذا الشكل ما الذي يضايقهم؟! لحيتي أم لحيتهم ليتدخلوا فيما لا يعنيهم ويحاولون فرض آرائهم الشخصية على أخص خصوصياتي؟!

أنا النمساوي "هانز ستينينجير" صاحب أطول لحية في العالم، سأبقى على اهتمامي بها، أهذبها وأراعيها لتزيد عن ١.٤ متر، وأدخل موسوعة جينس، سأربيها لتصل مترين، لن يهمني ما يثيره حولي الحاسدون الحاقدون من أقاويل ونكات سمجة، حينهما أسجل اسمي، سينظر الجميع إلي بإعجاب وانبهار، سيتنافسون للاقتراب مني ومصافحتي..

سأحصل على مبلغ ضخم وأسافر للإقامة في فينّا، حيث جمال الطبيعة والسحر والوجوه الحسنة، سمعت أن مدينه سالزبيرج جمالها خلاب ينسي الإنسان الدنيا بما فيها، مدينة تحفة تملك من الروعة ما يكفي لانتشال العالم من حروبه ومعاركه ليغوص بين غابات أبدعها الرب وأناس كما الملائكة، سأكون أشهر شخصية نمساوية، وأتجول بين ريف أسبانيا، لينتز وسانت بولتن وايميستيتين وجلوك لوستر المتجمدة، أتجول بين الشلالات وأصطاد الأسماك وأنا أتنزه على ضفاف البحيرات.

سأعود كفاتح وغازي إلى قريتي البائسة تلك، حينها سيتفاخر أهل البلدة بمعرفتي وبأنني نشأت بينهم، سيتناسى الجميع مضايقاتهم لي خلال سنوات عمري بسبب لحيتي، لكن الآن علي اتقاء شر ألسنتهم الحادة كما ثعابين تهوى غرس إبرها السامة داخل أذني، علي إيجاد حل وسط يريحني من كلماتهم الساخرة المستهزئة، ويترك لي مجال إطالتها أكثر..

ماذا أفعل؟!

ما الحل يا الله؟!

"وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك. ترسل سخطك فيأكلهم كالقش"، "الرب عزّي وترسي عليه اتكل قلبي فانتصرت. ويبتهج قلبي وبأغنيتي أحمده"، "يا قوتي لك أرنم لأن الله ملجأي إله رحمتي"، "مبارك الرب لأنه سمع صوت تضرعي".

ذكرك إلهي يعزيني، على تصفية ذهني، كيف أخبئ لحيتي كي لا تثير مشاعر عدائية كل من يراها؟، هل أدخلها في ملابس وأخفيها عن الأنظار؟، فكرة جيدة جدًا، عبقرية، سأنفذها من الغد، علي النوم الآن لأستطيع مواجهة شقاء الغد بكل ما فيه

.

ارتديت ملابسي سريعًا وأخفيت اللحية داخل القميص، تناولت فطوري والشاي ثم توجهت إلى عملي، الأمور هادئة لم ألمح شيئا غريبا، ربما لأنني أسير مطأطِئ الرأس دوما ولا أنظر إلى وجوه من يمرون علي، دخلت المطعم وبدلت ثيابي وبدأت ممارسة مهامي بجدية، أفقت على صوت مديري القاسي:

– سيد " ستينينجير " هل أنت مريض؟!

رفعت رأسي في ذهول وأنا أنفي ذلك:

– لا بخير حال سيد "موريس"

ابتسم في سخرية وملامح وجهه ممتعضة، نظر إلي من أعلى رأسي حتى أخمص قدمي قبل أن يكمل استهجانه:

– إذا لمَ ملابسك منتفخة هكذا كما لو كنت في الشهر الثامن من شهور حملك؟!

– أأأ..أأ

بسخف أكمل:

– أنتظر إجابتك؟!

تلجلجت قبل أن أجيب بصوت مرتعش:

– لقد أدخلت لحيتي أسفل ملابسي.

انفجر ضاحكًا حتى انتبه كل من في المطعم إلى حديثه الساخر ليبتسمون بغباء مثله:

– هل تعتقد أننا أغبياء بحيث لا نلاحظ هذا؟! لقد خيرتك بين بقائك في العمل وبين لحيتك السخيفة المثيرة للسخرية هذه، أفهم من حركتك هذه أنك تفضل هذه الشعيرات على عملك معنا في المطعم؟!

أسرعت أنفي هذا الاتهام:

– سيـ..

لكنه لم يمنحني الفرصة وأكمل صارخًا:

– اذهب وبدل ملابسك وسلم عهدتك للمشرف، وداعًا مستر "ستينينجير".

حاولت مجادلته لكنه أعطاني ظهره وعاد للتقليب وسط الأواني الفارغة ومراقبة باقي العمال بعيدًا عني، تمنيت لو تبتلعني تلك الأواني أو أختفي وأتلاشى من أمام زملائي وهم ينظرون نحوي في شماتة وشفقة.

مر أسبوعان على تركي العمل كنت أجتر ذكرياتي ومتاعبي منذ قررت إطالة لحيتي، مرت الأيام وللآن لا أستطيع إيجاد وظيفة مناسبة، الجميع يهلل لطلبي

وعندما يركزون في هيئتي لتحتل لحيتي كامل المشهد يبادرون بتوجيه طلقات السخرية مني ومنها، ثم يعتذرون متحججين بأي سبب لرفض توظيفي.
ذهبت وأنا في قمة بؤسي إلى صديقتي "جريس"، لإفراغ بعض من شحنات غضبي من كل ما يحدث، هي إنسانه مثقفة متسعة الأفق تمنحني الأمل وتزيد إرادتي وقدرتي على مقاومة سخافات الحياة، أخبرتها أنه ربما علي تقبل الأمر، يعتقدون أنني شخص غير متزن ولا يمكن الثقة فيه بسبب لحيتي، لقد رضخت جزئيًا لضغوطهم وفكرت بمحاولة المراوغة لإرضائهم..
منذ يومين وقفت أمام المرآة ساعة أحاول تقبل فكرة قص لحيتي رغم أنها بالنسبة لي حبيبة وعشيقة لا مجرد جزء من جسدي، في النهاية توصلت لفكرة تضفيرها، عندما انتهيت، طوحت بنصف طولها خلف ظهري وذهبت لتسوق طلبات الأسبوع من العم "جوزيف"، نظرات جيراني أشعرتني بمزيد من المهانة وهم يتغامزون ويتلمزون أمامي دون حساب لمشاعري، يشيرون نحوي ببجاحة وهم يضحكون مع من معهم..
احتضنتني "جريس" العزيزة في ود وهي تربت على ظهري قبل أن تأخذ بوجهي بين كفيها الرقيقين وتهمس لي:
– أوه صديقي العزيز لا تبتئس لن يدعوك وشأنك مهما فعلت لإرضائهم هذه طبيعة البشر، يعجبني عطرك.
ضحكت ولكني لم أستطع إبعاد شعوري بالضيق والحنق فعدت أشكو إليها في جزع:
– أقسم بالرب، إنني أستحم يوميًا، أشذب لحيتي كل فترة، أسرح شعرها وأوليها العناية الكافية لتظل نظيفة، كما لو كانت طفلتي المدللة، يمكنني المراهنة إنني أهتم بحالي وبلحيتي أكثر من اهتمام كل من في القرية بأنفسهم، أعتني بنظافتي الشخصية وكأنما سأقابل الرب في موعد خاص، ثم في النهاية ينظرون إلي شذرًا

مدعين قرفهم من طولها!!، ماذا فعلت فيهم لينبذوني بسببها هكذا كما جرذ قذر وحقير؟! هم السخفاء الحقراء لا يراعون حق الجيرة ولا حريتي الشخصية في فعل ما يعجبني ويريحني؟! هل علي الاستئذان وطلب الغفران من أي منهم كي أفعل ما أريد؟! أيعتقدون أنهم الرب أو رسل عنه ومندوبين ليفرضوا علي آرائهم الشخصية وما يفضلونه؟

أخبريني "جريس"، لمَ ينظرون بكل هذه الكمية من القرف والاشمئزاز؟!

– شـ

طلبت مني الصمت والهدوء، ثم ذهبت لتجهيز شاي البابونج اللذيذ لأهدأ، عندما عادت بدأت تناقشني في كل ما أخبرتها به، وبأن طبيعة البشر عامة لا تقبل كل ما هو مختلف عنها، لا يتقبلون ببساطة من يسير على غير منوالهم في الحياة، لكن حسن المعاملة وحسن الجوار هو ما سيجبرهم على مبادلتي الحب بالحب، والاحترام بالاحترام، فترة وستمر وسأرى بعيني الفرق.

لا أستطيع تصديقها، ولا أستطيع تكذيبها أيضًا؛ لذا هززت رأسي موافقًا في صمت، ضحكت وهي تخبرني بإدراكها جيدًا أنني لا أصدق حرفا مما تفوّهتْ به وأجاريها في الحديث فقط، لكنها لم تلمني، منحتني كتاب دانتي "الكوميديا الإلهية"، ظلت تفخم وتشكر فيه، ثم قررت أنه سيعجبني وأجد فيه ما يطمئن قلبي وبعضا من العزاء مما قد يريحني لأنه في النهاية سينال الجميع عقابهم في الجحيم.

قاطعتها بجفاء جراء كل ما مررت وأمر به:

– "جريس" افهميني أشعر بشيء ثقيل الظل يقتل هدوئي يحتل أفكاري ويخنقها، كل ما يحيط بي يمسك بتلابيب روحي ويجثم على صدري؛ يرتوي بدموع قلبي، من يدريني؛ ربما دخلوا المطهر ثم ارتقوا إلى الفردوس، سيحزنني حدوث هذا.

ضحكت ببراءة لأراها طفلة صغيرة تجالسني قبل أن تجيبني:

– أوه يا لها من فكرة رائعة، ستعجبك كثيرًا "هانز".

عقدت حاجبي وأنا أجيبها في جفاء:

– قلت سيحزنني حدوث ذلك فكيف تقولين فكرة رائعة ستعجبني؟!

أجابتني وتعلو وجهَهَا ابتسامةٌ ساحرة وعينان لامعتان من السعادة..

– لا أقصد هذا..

قاطعتها في حدة ولامبالاة..

– ماذا إذن أيتها الحكيمة ذات العقل الحذق؟!

أمسكت لحيتي لتلعب بها بين كفيها لبرهة ثم أخبرتني فكرتها:

– تدخل لحيتك أسفل البذلة الرسمية للعمل، ثم تضعها في حقيبة تمسكها في يدك وكأن فيها أوراق رسمية، ما رأيك، فكرة عبقرية، صحيح؟!

لم أستطع تقبل الفكرة، أو الادعاء بأنني سأفكر فيها وربما تعجبني، بادرت برفض هذه الفكرة الحمقاء بشراسة:

– لا أظن، هي فكرة بلهاء لا تصدر عن عقل مثل عقل "جريس"!!

لكنها بود طلبت مني أن أمنح نفسي فرصة وألّا أتسرع كعادتي دائمًا، حاولت إيقافها، لكنها أكملت:

– "هانز" لقد تعرضت لكمية مزاح سخيف كبيرة، كنت مثار سخرية لفترة طويلة، أعتقد أن عليك الآن تقبل فكرتي ووضعها موضع التنفيذ ثم تقرر بعدها إن كانت مفيدة أم فاشلة أيها الكئيب العنيد.

حركت رأسي في هدوء هامسًا:

– سأفكر في الأمر، وداعًا الآن تأخر الوقت ولا نريد انتشار القيل والقال عنا غدًا.

ابتسمت وهي تعقد ذراعيها أمام صدرها وتودعني، لم أستطع النوم بسبب هذه الفكرة، كنت أتقلب في الفراش كما ضفدعة تعاني الملل، قررت عدم تنفيذ الفكرة وأخيرًا ارتاح عقلي وذهبت في نوم عميق الخامسة صباحًا، استيقظت على صوت المنبه في التاسعة، قررت الاستفادة من اليوم بتنظيف القبو، عندما نزلت وأنرت

المصباح لم أكن أتخيل كمية الأتربة وخيوط العنكبوت!!، أتذكر أن آخر مرة دخلت قدمي هنا كان منذ عام ونصف تقريبًا، يا للهول، بل يا للعنة، لو رأته أمي لأشعلت فيه النيران..

بدأت في حملة نظافة واسعة، نظفت السقف أولًا وأزالت الأتربة وبيوت العنكبوت، ثم بدأت ترتيب الكراتين الملقاة في كل مكان، أنهيت الترتيب في حوالي الثانية مساءً، نظرت حولي ما كل هذه الكراكيب والكراتين، لا أذكر ما تحتويه..

فتحت أول صندوق أمامي، لأصدم..

لماذا ما لا أريده هو ما يحدث أو أجده أمامي ببساطة؟!

هل يتحالف القدر مع "جريس" علي!!

لقد وجدت حقيبة كنت أستخدمها أثناء عملي كمندوب مبيعات منذ شهور، يبدو أن فكرتكِ قد نالت استحسان السماء صديقتي الغالية "جريس"، أخرجتها وعدت إلى المطبخ، أزلت الورق الحافظ لها، فوجدتها كما هي بحالتها، جيدة، لامعة، جربت وضع لحيتي داخل فدخلت بكل سهولة، حملت الحقيبة وتمشيت داخل المنزل..

كنت أشعر بالاستغراب والدهشة أولًا، وبعد ساعة كنت قد اعتدت الأمر، بقي شيء واحد، يا ترى ماذا سيكون رد فعل من سيراني؟! ذهبت لأخذ دش سريع، هذبت لحيتي وقمت بالتأكد من جفاف شعرها، ارتديت ملابسي، أدخلت اللحية أسفل الجاكت، ثم وضعتها داخل الحقيبة، حملت الحقيبة وخرجت أتمشى في ثقة كي لا أثير النظرات نحوي..

الغريب أن كل من يراني كان يبادر بإلقاء السلام ويبتسم في وجهي، أنهيت التجول داخل القرية في ساعة، لكنني لازلت أشعر بالتوتر، قررت أن أجرب الأمر داخل حانة العم "إريك"، الذي ما إن رآني حتى بش في وجهي وهتف:

– "هانز" يااه لم نرك منذ شهور طويلة، أخيرًا قصرت لحيتك، تبدو أكثر وسامة يا رجل، هل عدت للعمل مندوب مبيعات ما هذه الحقيبة؟!.

شعرت براحة رهيبة تسكن قلبي، هدأت أنفاسي المضربة منذ خرجت، ضاع توتري، ابتسمت وأنا أجيبه في ود:

– لا لم أجد عمل إلى الآن، غداً سأعود لشركة المبيعات لأطلب عملا من جديد.

أكملت السهرة من العم "إريك"، ضحك كثيرًا عندما أفهمته الحيلة، ليصفني بالمخادع الماكر، لكنه أثنى عليها وقال أنها أفضل فكرة قمت بها منذ سنوات..

كلما دخل علينا شخص جديد قص عليه ما فعلت مع لحيتي، ليغرق الاثنان في نوبة من الضحك، قيلت بعض الكلمات الساخرة وانطلقت بعض المزحات المرحة، أثناء تبادلنا كؤوس المشروب، لكنها في النهاية أفضل مما كان يحدث سابقًا خاصة مع إعلان الجميع أنها أفضل حالًا داخل الحقيبة من أن يروها تتدلى أمامي كما وحش أو روح غاضبة تستعد للانقضاض عليهم.

عادوا للسخرية منها من جديد، حذرني بعضهم من الحشرات، والبعض من العصافير، فقد تبني أعشاشها معتقدين أن لحيتي شجرة!!، كنت أشاركهم الضحك والسخرية على نفسي لأول مرة.

استيقظت في اليوم التالي شاعرًا بقدر كبير من التفاؤل، اغتسلت وتأكدت من هيأتي قبل الخروج، ذهبت إلى عملي القديم لأعمل مندوب مبيعات، وافقوا على طلبي بلا أي مجادلات، استلمت العمل في اليوم التالي ومرت الأيام بسلام.

مر شهر على عودتي للعمل، عدت اليوم متأخرًا مرهقا تعبا بسبب التجول بين المنازل لتسويق منتجات الشركة من مواد التنظيف، تناولت عشائي ثم أخذت دشا سريعا، وأخيرًا سعدت بسماع طقطقة ظهري على سريري، ودخلت في نوم عميق.

حلمت "بجريس" وهي تمدح في ذكائي وفخرها بأنني صديقها المقرب، شعرت برعشة مفاجئة فاستيقظت لأسمع أصوات صراخ وطلب بالنجدة يأتي من الخارج، حاولت الانتباه أكثر فسمعت الجيران يصرخون:

حريق

حريق

النجدة

هببت فزعًا من على سريري وأنا أتساءل، أين هذا الحريق؟، علي الخروج لنجدتهم والمساعدة في الإطفاء، الإضاءة خافته وأنا أبحث بيدي عن البنطال السخيف، همست لنفسي وأنا أحاول ارتداءه في عجل؛ "لا داعيَ للقميص، هيا "هانز" أسرع لا يمكنك التأخر عن مساعدة جيرانك،....

أأأأ

لحيتي!!

يا للجحيم!!

عليكِ اللعنة!!

أوقعتني لحيتي، عنقي يؤلمني، النجـد..

ما هذا الظلام الدامس، أين أنا؟!

انتهت

"تراتيل موسيقية"

شاب نحيل الجسد، ضعيف البنية، نائم على سرير صغير متهالك، يبدو أنه منهمك في التفكير، أو ربما في تأمل السقف الآيل للسقوط ببلاهة، فجأة اعتدل جلس على طرف سريره يحدث نفسه:

– "عزيز" التفت لعملك ودعك من هوس وجنون الموسيقى، ألَا يكفيك تطوعك بالعزف مع جوقة الكنيسة في الآحاد والمناسبات، علي الخضوع لنصح الجميع والالتفات لحياتي.

تحرك في دوائر داخل المساحة الخالية في غرفته الحقيرة الأثاث؛ قبل أن يصرخ بصوت مكتوم:

لكن ما قيمة الحياة إن فعلت؟!، أوف، متى سيقدر الجميع أن الموسيقى حياتي؟!، الموسيقى هي من تجذبني إليها دون إرادتي، كلما قاومتها تسحرني وتأسر لبي أكثر، هي فتاتي العاشقة، امرأة قلبي المخلدة، ملاكي الحارس الذي يأخذ بيدي ويسير في خيلاء معي ليدخلني الفردوس، هل أسمع كلام الجميع وأخاف مما يلقونه على مسامعي من وعيد وتهديد وأهرب من ملكوت الرب؟!، هل يمكن لأي منهم ترك الملكوت والسباحة بين أمواج نعيمه؟!

أمسك برأسه في حيرة قبل أن يكمل:

– كيف أفعل وهي ما تطهر روحي، مع كل نغمة وكل قطعة موسيقية أنتقل من مستوى لمستوى أعلى، أشاهد وأراقب ببهجة وشغف يد الرب الرحيمة وهي تكافئ محبيه، يومًا سأحقق حلمي، سأنتقل من قريتي المختفية وسط اهتمامات حكومتنا البائسة، لأعيد وضعها على خريطة العالم فتصبح منارا يشع بالأمل والتفاؤل يوم أحقق ذاتي ونجاحي، يوم تزهر بذرة حلمي ويغذي ثمرها عقول أضناها التعب والشقاء فتريحهم وتطيب شقاء الحياة وتزيحه عنهم.

سأكون كما "باخ" بل "موليير"..

نفخ أوداجه وفرد هيكله العظمي وهو يرفع صوته مكملا أحلامه:

– سأكون الموسيقي الأول في جمهورية مصر العربية، يشار تجاهي بالبنان، يفخر بمعرفتي حتى المجهول، سأكون القدوة والنبراس..

سأكون كما "جيوفاني باتيست لولي" أصعد من العدم لأحتل كامل المشهد الثقافي؛ سأتصدر واجهته، لن ألغي وجود زملائي مثله، سأكون قلب الزهرة وهم وريقات ترفرف حولي لنزين العالم ونجمله بما نقدمه للبشرية من موسيقى تزرع الأمل وتحث على الجمال والحياة..

قاطعه صوت أجش يبدو عليه السخط والغضب:

– لن ألغي وجود زملائي!! أتصدق نفسك يا هذا؟!

– من أنت؟ كيف دخلت غرفتي؟!

قالها "عزيز" وجسده يرتعش ونظراته زائغة تنتقل بين باب الغرفة وهذا الشخص الماثل أمامه من العدم، أجاب الشبح ضاحكًا:

– أنا صوت عقلك، ناصحك الأمين، أتعلم أضحكتني مقولتك زهرة ووريقاتها ترفرف حولي، هدمت الواقع وأعليت شأن الخيال يا صاح، يا ربي لا أستطيع التوقف عن الضحك..

فزع "عزيز" وتحرك هلعًا مبتعدًا عن الشبح لينزوي في ركن غرفته محاولا النفاذ داخل الجدار، حاول الاحتماء وعندما فقد الأمل في اختفاء الشبح تمتم بصوت يكاد يشي برغبته في البكاء:

– لقد جننت، بالتأكيد جن عقلي لأتوهم شخصا أمامي يبادلني الحديث!! أمي.. أمي

قلده الشبح ساخرًا..

– أمي.. أمي تعالي وخذيني في صدرك، ابتل سروالي بدليه لي، هل أنت من هؤلاء الرجال العالة على أمهاتهم، صبرني يا الله على هذا المعتوه، كيف تريد أن تغزو العالم بموسيقاك يا ابن أمِّك؟!!

غضب "عزيز" وحاول التماسك، أظهر بعضا من الشجاعة رغم ارتعاش كل خلية فيه، تنفس بهدوء قبل أن يجيبه:

– لا تسخر مني أريد فقط من يؤكد لي أنك شخص حقيقي.

ضحك في شماتة وهو يجيبه:

– أنا مجرد شبح مسكين لموسيقارك المفضل، ألم تتفاخر دومًا بأنك مثلي ستبدأ من العدم؟!

صرخ "عزيز":

– "جيوفاني باتيست لولي"؟، لا أصدق عيني، أنت أمامي عن حق؟، يا للسماء.

تأفف الشبح وهو يبتعد عن الشاب، ارتكن على الحائط وهو يجيبه في امتعاض:

– دعك من هذه الكلمات الملتوية، كنت تسخر مني منذ قليل

كاد يغشى على الشاب، تراقصت عينه داخل محجرها قبل أن يستطيع النطق معتذرًا:

– أعتذر سيدي ولكنني قرأت عن حياتك الكثير، لم أجد ما يعيبها إلا استئثارك بالملك وبلاطة وإبعاد كل منافس حتى لا يصل أو يحقق ما استطعت تحقيقه بقربك من الملك.

صرخ فيه وهو يتضخم في الحجم:

– اصمت أتتهمني باستغلال علاقاتي، يا لك من تلميذ فاشل، أحمق..

قاطعه الموسيقي الشاب وهو يرسم ابتسامة باهتة ويقف باعتذار فاردًا عموده الفقري الآيل للسقوط:

– لا لم أقصد هذا منك نتعلم يا مُعلم

تهكم الشبح على الشاب الرعديد من وجهة نظره وتحامل على هيبته وكبريائه المجروح مفسرًا:

– يبدو أن أعدائي شوّهوا ذكراي، اقصص علي ما تعرفه عني أيها الأحمق ربما أجد مبرر لغطرسة سخافتك تلك.

صمت الشاب للحظات يبتلع فيها ريقه وهو يتقهقر بعيدًا عن الشبح، تنحنح قبل أن يبدأ سرده:

– والداك من فلورنسا إيطاليا، وهو طحان بسيط، دراستك عامة لجميع العلوم، علمك الراهب فرانسسكاني العزف على الكمان، في الرابعة عشر ذهبت كخادم لدى مدام "دي مونباتسييه" في فرقتها، اختارتك رغم عدم وسامتك كما كانت تريد لأنها أرادت شخصا تبادله الحديث بالإيطالية..

كثيرًا ما اشتكى منك الآخرون لها بسبب سوء لياقتك وتصرفاتك وخاصة شراهتك في الأكل لكنها كانت تبقى عليك لذكائك وفطنتك.

قاطعه وهو ينتفخ بشموخ كما طاووس:

– كل هذه إشاعات ثم إنها أبقت علي لعزفي على الكمان بإحساس عالٍ واحترافيتي.

ابتسم "عزيز فيكفيه صدام من البداية وهو يحتاج إليه ليتعلم منه أكثر:

– بالتأكيد، بالتأكيد معك حق أصدقك، بدليل أنك صرت أشهر عازف في فرقتها، ولولا نفيها سنه ١٦٥٢، لصرت أشهر منها هي شخصيًا، فخلال عام واحد تخطيت هذه الأزمة واقتربت بمعارفك..

أقصد بمهارتك، لترقص مع الملك الشاب "لويس الرابع عشر" في توائم وتجانس تام، مما أهّلَك للانضمام للأسرة الملكية كمؤلف موسيقي مرموق، ليتني كنت معك، أتذوق هذا النجاح، أكتب موسيقى أوبراليه وأراها تعزف أمامي بإخلاص، شعور يدغدغ كل خلية في، أحس..

أوقفه الشبح بإشارة من يده في غطرسة وغرور قائلا في سماجة وفجاجة واضحة:
– يالك من طفل غرير، أتعتقد أنك ستضحك علي بإطرائك علي وبطيب كلماتك، لقد اعتدت هذا المديح فأرح نفسك منه، أتعلم ذكرتني بماضي وليالٍ كانت عامرة بالجمال، كان الملك لأجل خاطري يمنع أن تزيد الفرق عن أربع أفراد، كنت أضحكه بكل يسر..

ألفت أكثر من (٣٢) عمل باليه للبلاط، بجانب (١٢) عمل كوميدي باليه أكثرها مع شريك نجاحي الأول "موليير" العزيز، (١٤) عمل للأوبرا، بالإضافة إلى أعمالي الخاصة بالمناسبات الدينية أو لأجل الملك وذكرى صعوده على كرسي العرش أو لمرضه و.. و.. وكثير، كنت رقم واحد في المملكة.

قاطعه الشاب بفضول ندم عليه بعد لحظات بسبب ردة فعل شبح الموسيقي العظيم:
– لهذا اشتهرت بكونك راقص وموسيقى بارع وقائد اوركسترا محترف وكوميدي، هل حقًا أنت من لقبت نفسك باسم، جان بابتست دو لولي المحترم، وادعيت أنك ابن لوريت جو لولي الفلورنسي؟

غضب وصرخ فيه:
– أتحاول إهانتي، هذه حقيقة أيها الشاب لم أدّعي، يمكنني مبارزتك وقتلك بسبب هذا الاتهام الشنيع، لقد حصلت على الجنسية الفرنسية لمهارتي وما أقدمه إلى فرنسا من خدمات موسيقية جليلة، حتى أن الملك لقبني بـ "مفتش عام الموسيقى"، ووقع عقد زواجي على الجميلة البريئة "مادلين" ابنة قائد موسيقى الحجرة الملكية "لامبرت"، هل يحدث كل هذا الشرف لشخص وضيع أو حقير؟!.

طأطأ الشاب رأسه وهو يجيبه:
– تقبل اعتذري، لكن لماذا أزحت منافسيك؟، من الظلم أن تحتكر حق إنتاج الأوبرا والتراجيديا الغنائية في فرنسا.

استمر في تعصبه:

– هؤلاء الهمج كانوا أقل من منافستي، كانوا يحاولون تدبير المكائد ليتخلصوا مني، يتفننون في إطلاق الوشايات عني، حتى أن أحدهم حاول تسميمي، يقللون من إنجازاتي، يحاربونني بشتى الوسائل، فهل هذه العقليات تستحق أن أسامحها؟ كنت أقدم كل فريد، جددت في الأوبرا وأدخلت فيها مزيجا من الأوبرا الإيطالية، أخرجت موسيقى راقصة حيوية ولكنها وقورة قوية، أخبرني من منهم كان يمكنه مضاهاة قدراتي هذه،؟ بالتأكيد لا أحد!!

لفت الانتباه إلى ضرورة الاهتمام بالممثلين وأزيائهم والديكورات وتصميم الرقصات لتوصيل الحبكة بكل سلاسة إلى المشاهدين، فلا يمكن أن أتعب نفسي في تقديم قضايا أخلاقية تمتلئ بالحب والنبل ليضيعها بعض من الهواة وهم يؤدون المشاهد، لقد أثنى الملك على ما أقدمه لما له من أفكار وأهداف مميزة حتى رقيت ووصلت إلى رتبة "سكرتير الملك" أتتخيل هذا الشرف!!

في هدوء عقب الشاب:

– أول مرة قرأت عنك ظننت أن منافسيك سيكونون سبب موتك، وربما غطرستك هي ما ستؤدي إلى هلاكك الحتمي، استغربت نهايتك.

تنفس بهدوء، ثم دار في دوائر داخل الغرفة، توقف في المنتصف كممثل يستعد لأداء مشهد النهاية في مسرحية من نوع الكوميديا السوداء..

لازلت أذكر أحداث اليوم التي تسببت في هذه الكارثة المريعة، كنت داخل قاعتي الموسيقية، صور الملائكة المجنحة على الحوائط تشاركني الفرحة، البحيرة الواسعة بعرض الحائط والممتلئة بأسماك ملونة تشارك حورية البحر الغناء لتغري الأمواج بالعزف في هدوء، السماء الزرقاء الصافية بكل ما يدغدغها من سحب وندف من نجوم مختبئة خلفها المزينة للسقف، تثير روحي لترقص مع الألحان.

كنت أشعر أن التماثيل من حولي تبقّى لها أقل القليل وتخرج من حالة الجمود لتشاركني الرقص، روحي هائمة بين النوتات الموسيقية، جسدي المتراقص يرتل في خفوت ويبدع، يدي تسجل كل ما يتلى على خيالي من صلوات..

أكتبها على هيئة أبيات موسيقية ونوتات تترجمها الآلات الموسيقية إلى ألحان عظيمة من اختراعي، كنت أركز بشدة لتأليف موسيقى عظيمة تلائم الاحتفال بشفاء ملكنا المعظم..

كنت أسبح وأكتب مقطوعة جديدة، "تسبيحة الشكر إلى الله" اسم يليق بالمناسبة، كنت أسبح وأشير لفريقي ليسيروا حالتي ونرتقي معًا لإخراج عمل جبار..

في حركة هزلية لا تليق بعظمة ما نؤديه، طرقت إصبع قدمي بعصاي التي أحافظ على إيقاع الفريق بواسطتها، ذلك الضئيل المشاكس أوجعني بشدة، صرخت دقات قلبي معلنة ألمها، تشتت تركيزي للحظات، قلت لنفسي؛ لا.. لا يمكنني السقوط متوجعًا الآن، علي إكمال مهمتي بنجاح، أصدرت أوامري للفريق للعودة إلى التدريب..

تناولت بعدما فرغنا شرابا مهدئا، استمر التدريب أربعون يوما لنلحق موعد الاحتفال بالملك، كان الألم ينتشر في قدمي كلها فأعلنت العصيان وبدأت تناوشني بالوجع أكثر، اضطرت لطلب الطبيب الذي تعجب مما حدث..

اتهمني بالإهمال وأنني مقصر في حق نفسي، وبسبب لامبالاتي بصحتي تدهور الأمر من مجرد جرح بسيط إلى التهاب ثم خراج تسبب في غرغرينه أصابت كل قدمي، صدمني كل هذا لكن ليس قدر صدمتي بقراره ببتر قدمي.

صمت الموسيقي أسفًا على حاله، ابتعد قليلًا معطيًا "عزيز" ظهره، احترم "عزيز" حالة الصمت هذه، فمن يحتمل مثل هذا الخبر، أراد قطع هذه اللحظات الكئيبة ومشاركة شبحه مشاعره مظهرًا بعض التأثر بما سمعه، فهمس في تودد:

– يا للهول، أمر جلل فعلًا، كان يمكنك تنفيذ نصيحة الأطباء وبتر قدمك وحماية حياتك، بالتأكيد كانت ستمر المحنه لتخرج لنا درر..

انتفض ناظرًا نحوه في غضب، صارخًا بلهجة حانقة، حاقدة:

– لو كنت مكاني كنت ستوافق؟!

صمت الشاب ولم يستطع الإجابة، هل كان سيوافق أم سيعترض ويحاول للنهاية إيجاد وسيلة أخرى للنجاة حتى يفاجئه الموت ويختطفه، شرد في أفكاره وتساؤلاته وأفاق على صوت "جيوفاني"..

– لا لم أفكر مثلك بوسيلة أخرى.

هتف "عزيز" في مرح طفولي:

– هل تقرأ الأفكار؟!

سار "جيوفاني" بخيلاء في أنحاء الغرفة قبل أن يجيبه:

– هذه ميزة أن تكون شبحا، كل ما في الأمر أنني اكتفيت من الحياة وبما وصلت إليه وحققته، كان علي مواجة الموت بعد شهرين من إصابتي السخيفة..

قاومت ألم قدمي بقوة، لا يتوفر لدي الوقت الكافي للاستسلام أو السقوط، استدعيت أبنائي لأودعهم وكتبت وصيتي، حزنت لأنني لن أراهم ثانيا ولا غاليتي "مادلين".. لكن ما صبرني على فراقهم أنني سأنضم إلى جوقة السماء، تخيلت كم أن الرب يروقه عزفي لذا ساعدني لأصل إلى ما أنا فيه، واثق أنه سيرقيني لأكون قائد اوركسترا السماء، لقد أمنت مستقبل أولادي من بعدي وتركت لهم خمسة منازل كبيرة غير الجواهر والأموال، كنت متأكد من أن الجميع سيحسدهم على إرثهم.

قاطعه "عزيز" بصوت خفيض..

– لديك حق معروف أن المبدعين عامة يموتون فقراء شحاذين، أعتقد أنك من القليلين الذين تركوا خلفهم ثروة كبيرة، كما أنك من القليلين الذين بُني لهم بأمر ملكي ضريح فخم يليق بتركته وإرثه الموسيقي للبشرية.

تنهد الشبح وهو ينظر بفخر نحو "عزيز"، طار حوله قبل أن يسأله في فضول وبصوت وقور:

– هل لازلت تراني متغطرس لا يحب إلا نفسه؟

ابتسم الشاب وهو يغمض عينيه ويحرك يده بعصا خفيه ليقود اوركسترا خياليه، تحرك لليمين ثم لليسار قبل أن يهمس في بهجة:

– أعتقد لو وصلت لمكانتك سأفعل مثلك، هي طبيعة بشرية، أنت علمتني أن أحارب لأحقق حلمي، عليّ البدء بخطوة فعلية واقتحام الحياة، علي الاشتراك في فريق يبروز موهبتي.

لم يسمع "عزيز" إجابة ففتح عينيه فلم يلمح شبح "جيوفاني"، تلفت حوله فزعًا، وهو يهمس بصوت مرتعش "أين ذهبت؟"، وضع كفه الأيمن على جبهته والآخر على قلبه الذي يدق أقوى من دق طبال خلف راقصة شرقية، جلس على طرف سريره قبل أن يبتسم ويهمس وهو ينظر إلى سقف غرفته:

– وداعًا معلمي يومًا سأكون تحت قيادتك في فريق جوقة الرب.

انتهت

"رعب البحر"

ضجيج، مياه كما سيل عارم يصب داخل القارب، صخب.. فوضى، مياه غامرة تغطي كل شيء حولي، اختفت الألوان ولم يبقَ أمام عيني غير الأحمر المتوهج كما قرص شمس تركز بصري عليه، وأبيض شفاف يزاحمه ليحتل المشهد..

ضجيج، صخب، أحمر، أبيض، وأنا طائر للأعلى بلا أجنحة، السماء صافية، فاليوم مشمس خفيف الظل، نسيم هادئ، رحيق البحر يأسر أنفاسي، مشهد بديع هنا بالأعلى، بحر واسع، لحظة..

أعرف هذه السفينة هناك!!

إنها من ضمن أسطولنا البحري، من المفترض أن أقوم بزيارتها اليوم، لمَ البحارة هائجون؟! ما هذه الهرجلة؟!، عليّ عقابهم على هذه الفوضى، سيدفعون ثمن الإهمال في القيام بواجباتهم، لم يقفون بلا تنظيم يرمقون البحر برعب وفزع؟، الموضوع ليس طبيعيًا بالمرة!!..

هل هناك من يهددهم؟!

يا ربي!!

هل تلقوا على حظي البائس رسالة تهديد يوم زيارتي المقررة؟!

بالتأكيد هناك ما يريب!!

الجميع يتجه نظرُه نحو هذه البقعة، ينظرون نحوي، هيييييه،

أنتم ماذا يحدث عندكم؟!

أجيبوني..

هل تسمعونني؟!

أيها القائد "ميخائيل"، يا صديقي..

ألا يرون يدي الملوحة لهم؟!

يا للسخف، لمن ينظرون إن لم يكن لي؟!

حسنًا هناك في الجانب المقابل بحر وفقط، بالأسفل..

يا الله في الأسفل قارب متفتت إلى مواده الأساسية، قطع مطاط متناثرة، قطع ملابس تحولت إلى خرق بالية استباح بياضها حمرة الاحتراق وسواده المتمكن في النسيج، خزان وقود يتجول بين الأمواج، طوق نجاة يسبح مع التيار لبعيد، قطع ملابس سوداء ممزقة عائمة، جثث تطفو.. ماذا جثث تطفو؟!

يا ربي الرحيم..

ما كل هذه الدماء؟!

ما سبب الدمار يا ترى؟!

هل هاجم الإرهابيين قارب أصدقائي؟

لحظات، كيف لم أنتبه لذلك؟

لمَ أنا بالأعلى أشاهد الجميع وهم بالمقابل لا يرونني؟!

من هؤلاء؟!

أليس هذا "جوزيف" مساعدي؟، وهذه "مونيكا" متحدثتنا الإعلامية، ما الذي حدث لهم؟، كيف تحولا إلى جثث طافية؟، هذه القطعة السوداء أعرفها، رأيتها من قبل، لمن هي؟، إنها جزء من..

تشبه بدلتي!!

بل إنها هي، لقد قامت بتجهيزها زوجتي الحبيبة وطالبتني بالحفاظ على هيئتي وهيبتي، أذكر أني كنت أرتديها منذ قليل؛ كيف استولى عليها هذا السابح وسط الأشلاء؟!..

أشلاء.. أشلاء.. أشلاء..

رائحة بارود، خشب محترق، وجع، وجع، كل ما في يوجعني..

لمَ أنجذب نحو هذا السابح وسط خراب القارب؟!، أيتها الموجة بعد إذنك أيمكنك أن تريني وجه هذا السابح؟، نعم أحسنتي، بل خسئتِ، اللعنة، اللعنة ألف مرة ما كل هذا الجحيم؟.

تلك العينان عيناي، هذا فمي، شاربي احترق شاربي!!، يا للهول، نصف وجهي أكلته النيران، أين قدماي؟!، بل أين جذعي؟، بل نصفي السفلي كله، يا للشقاء، كارثة.. كارثة..

ماذا حدث لجسدي؟!

لقد قتلوني، النجدة..

ظللت أصرخ ثم..

استيقظت من كابوسي المرعب، انفجر القارب بعدما أنهيت زيارتي لأحد قطع أسطولنا البحري، هل ستكون نهاية الوزير المالي للمستعمرات الشرقية – أمريكا "روبرت موريس" القتل بسبب قذيفة سفينة حربية لأسطول بلاده، يا لمفارقات القدر !!

لا أصدق هذا الكابوس السخيف!

أتصبب عرقًا، وجسدي يرتعش كما جبان تفاجأ بوجوده وسط قطيع من الثيران الأسبانية، ترتعش يدي كما لو كانت قطعة من جيلي في يدي طفل شقي، سحبت سيجارة وأشعلتها لتهدئ أعصابي، ركزت نظري على زوجتي الحبيبة النائمة جواري كما طفلة بريئة، هل أُوقظها وأقص عليها الكابوس؟!

اممممم..

ليس من العدل أن أفعل، لأحتمل آلامي وحدي كما أفعل دائما، لا داعيَ لإيقاظها فيكفيها إرهاق حفل "بنيامين" بالأمس، لقد مرت الليلة كأجمل ما يكون ببركة رعايتها لكل تفصيلة، كان حفل تعارف بين عائلتنا وعائلة صديقته الرقيقة "مليسيا"

من أفخم ما يكون، استطاعت أن تريهم قدرنا ببساطة ودون أن تتفوه بأية كلمة، يعلمون الآن بمن ارتبطت فتاتهما عارضة الأزياء.
زوجتي الحبيبة، جميلتي النائمة، شعرها المشرق كشمس الظهيرة يظهر من أسفل هذه الوسادة البغيضة التي تغطي بها رأسها، جسدها لازال بض شهي رغم عمرها الخمسين، مر العمر رفيقة حياتي ودائمًا كنتِ خلفي تدعمينني وقت ضعفي، تقوينني لأحقق ذاتي وحلمي في الوصول إلى منصب سياسي عال، تستحقين مكانتنا الحالية غاليتي، لقد وصلت لمَا أنا فيه الآن بفضلك ولوجودك معي..
ماذا أفعل؟، هذا الكابوس قلب دماغي، ربما علي أن أطلب من "ماغي" سكرتيرتي إلغاء الزيارة!، هذه أفضل وسيلة لتخطي رعشة قلبي والخوف المستبد فيه، لكن كيف سأبدو إن علموا السبب؟، يا الله، ربما الأفضل أن أذهب للتجول في الحديقة قليلًا أو أن أجري فأخرج طاقتي السلبية وأصفي ذهني، ثم أقرر، هذا هو الحل الصحيح.
أبعدت الوسادة عن رأس جميلتي ومنحتها قبلة صغيرة على الجبين، أجبتها على سؤال أعتقد أنه ربما يكون "أين تذهب؟"
– سأجري قليلًا أشعر بطاقة مفرطة علي التخلص منها بسبب زيارة اليوم
سحبت الوسادة على رأسها ثانية، وخلدت إلى النوم؛ فالساعة لازالت الرابعة صباحًا، ارتديت ملابس الرياضية، خرجت أتسحب بهدوء كي لا أثير ضجة تزعجها، المنزل هادئ جدًا، الخادمة لا أثر لها، بالتأكيد غارقة في سُبات عميق جوار زوجها سائقي.
تجولت بين أزهار ونباتات اختارتها زوجتي بعناية لتزين الحديقة، ثم بدأت أجري.. يدق قلبي كما مضخة معطوبة، أكاد ألمح البخار المتصاعد من رئتيّ؛ عاندت وقررت الاستمرار، جريت نحو الشارع العمومي، حاولت تشتيت انتباهي بالنظر إلى السماء الصافية كما لو كانت سجادة فاخرة، الجو هادئ، النسيم عليل، رائحة النباتات حولي مبهجة، بضعة أفراد من جيراني يجرون مثلي، كل في حاله،

يضعون سماعات في آذانهم ويشغلون موسيقى للتسلية تناسب أمزجتهم، لماذا لم أفعل مثلهم؟!

صبرت نفسي بقول؛ لا داعيَ، هي جولة صغيرة وأعود إلى حضن زوجتي الحبيبة، اهدأ "روبرت" اهدأ، لا تجزع كما صبية صغير، مجرد حلم وانتهى، يا ربي لا ينقصني إلا التبول داخل سروالي هلعا..

ضحكت بصوت ناسيًا وقاري المعهود، حينما انتبهت لنفسي أغمضت عيني وظللت أجري لحوالي عشر دقائق دون نظر إلى ساعتي، كنت أحاول تصفية عقلي، وأخيرًا فتحت عيني وابتسمت في راحة، البحر على مقربة مني يبدو كشريط حريري، أو كما طفل نائم في مهده.

أكملت طريقي مشيًا حتى وصلت إلى الشاطئ، نظرت إليه بتحدي، همست له؛ "لن تهزمني مياهك يا هذا، سأقوم بزيارتي ولن يخيفني حلم سخيف"، تنفست بقوة لأطرد كل ما يقلقني خارج رأسي.

شعرت براحة غريبة لقراري، عدت إلى منزلي في وقت أكبر بعدما قررت الاستمتاع بكل ما أمر عليه من مناظر طبيعية، دخلت لآخذ دشا وأريح أعصابي أكثر، قررت أن أمارس بعضا من التغير لأبهج نفسي، علي تدليل نفسي، انتقيت قطعة موسيقية للعظيم "موزارت"، ثم اخترت شامبو من مجموعة زوجتي برائحة التوت البري وسائل استحمام برائحة العنب.

ملأت حوض الاستحمام وأفرغت نصف العبوة فيه، ماء دافئ، عبير التوت البري المغري، موسيقى ساحرة كما لو كانت صادرة من بين مرتفعات جبال الألب، غمرت جسدي في الماء وأغمضت عيني، لا أعرف كم مر من وقت لكنني أفقت على صوت زوجتي تناديني كي لا أتأخر.

لففت جسدي ببشكير قطني وخرجت، وجدت الشمس في انتظاري تبتسم بعذوبة، وجهها أبيض ناعم، غرقت في بحر عينيها الأزرق؛ فاقتربت منها لأقبلها، ابتعدت قليلًا وهي تهمس قرب أذني:

– هل تستخدم أشيائي للتجهز لموعد غرامي مع سواي؟
ضحكت وأنا أقترب منها أكثر مجيبًا:
– بل أنتِ الموعد.
أخذتها في حضني، مر الوقت ولم أشعر إلا وصوت هاتفي يزعجني، إنها قاطعة الملذات سكرتيرتي الحسناء "ماغي" اتصلت لتأكد علي موعد اليوم فعادوتني مشاهد الكابوس، خرجت من جنة غاليتي "تيرا" وذهبت للتجهز لزيارتي المفزعة.
لا أعلم لمَ يتملكني شعور بأن أنفاسي عبء ثقيل يخنقني، روحي قلقة، مضطربة، هناك شيء جاثم على صدري ينغص علي اللحظات، الجميع يلاحظ شرودي ويسألني هل هناك ما يزعجني؟، فأنفي؛ ليتني أستطيع البوح لأخبركم أن هناك ما يريب ويثير ضجري، لكن كيف أخبرهم أنني خائف من الذهاب في هذه الزيارة!!
الدقائق تمر كما لو كانت مهرج يتعمد إثارة أعصابي، غانية تتراقص وتزيد عهرها برقصة استربيز رخيصة، صرخت في سائقي كي يتمهل في قيادته، علام يسرع لا أفهم؟، سائق غبي!
أحاول التلهي عن الأمر، أقلب نظري بين ما نمر عليه من مناظر، ثم قررت الاكتفاء بالنظر إلى مرآة السيارة لأراقب الحراس في صمت، يا لسخافتي، لا يجب أن أدع الجميع يلاحظ توتري، سأنظر من زجاج السيارة وألهي نفسي بمراقبة الطريق، أبراج سكنية، مباني ومقار لمكاتب إدارية، محلات أكل سريع، محلات ورد..
محل يبيع سمك للزينة، و.. و...، محل آخر للسمك، سمك استخرج من بحر ما، بحر وأمواج متلاطمة، بشر يصارعون الموج العالي، نار، جثث..
يا الله هذا الكابوس لازال يحتل كل تفكيري الواعي واللاوعي!!
في هذه اللحظة البائسة، طرأت على رأسي فكرة خطيرة، ابتسمت في فخر، تناولت اللاسلكي وهاتفت قائد السفينة، صديقي العزيز القائد "ميخائيل"، طلبت منه ألا

يحمل الجنود أية أسلحة نارية، وألا يترك بارود على ظهر السفينة، وألا تطلق المدافع قذائف التحية حتى أعود إلى الشاطئ..

استغرب طلباتي وحاول المراوغة بحجة العادات والتقاليد المتبعة في هذه الزيارات الرسمية لكنني أصررت لأسباب لا يجب أن أعلن عنها حاليًا، لكنني وعدته بأن يعلم كل شيء بعد ذلك.

تحجج بأنه سيتواصل مع المسئولين ليلغي هذه الطلبات السخيفة، عدت لمجادلته، لم يكن أمامه في مواجهة إصراري إلا الموافقة على مضض خاصة بعدما اضطررت لإخباره عن كابوسي، ضحك ملء شدقيه وهو يمازحني بأنني صرت خفيفا ضعيفا أسيرُ خلف الشعوذة والخرافات، أعلم أنني سأكون أضحوكة الجميع لأعوام، سأكون بطل ثرثرتهم، أدرك هذا منذ الآن ولكنني أقبل به مقابل إنقاذ عمري.

أركز مع كل ما حولي ليطمئن قلبي، يريحني أن الجميع يتصرف بطريقة طبيعية، يبدو أن صديقي العزيز "ميخائيل" صدق في وعده، ولم يخبر أي شخص عن سبب هذه الدواعي الأمنية المكثفة، لقد أثبت أنه صديق العمر عن حق.

لم يمنع هذا أن يسمح لنفسه ببعض الاستثناءات ومنحني بعض من الغمز واللمز بين الحين والآخر عن وسواسي القهري وكابوسي، بين الفينة والأخرى يبتسم بطريقة ساخرة وهو يتهكم علي، لم أعاتبه فالمهم أن الزيارة مرت بسلام.

ركبت قارب مطاطي للعودة إلى الشاطئ مع مساعدي ومتحدثتنا الإعلامية، كنت أتمنى لو تركتهم على السفينة أو ركبت قاربا آخر لفك النحس، لكنني لم أستطع مواجهة صديقي بهذا الطلب فاحتملت وجودهم وقلبي يقاسي من وساوسه، صعد معنا اثنين من البحارة، ركزت نظري على "ميخائيل" لقد خشيت أن يخلف اتفاقنا وتنطلق قذائف التحية العسكرية قبل أن أصل إلى الشاطئ.

تنفست الصعداء عندما انتهى الأمر أخيرًا، لحظات وأنزل بقدمي وأسير على ضفة الشاطئ في أمان، نظرت خلفي كي ألوح لمن على السفينة في سعادة، لمحت

صديقي يحرك يده أمام وجهه فجأة كأنما يهش شيئا يتحرك أمامه، نهش قلبي الفزع فجأة، فهل سيظنها بحارته إشارة الإطلاق؟!

ابتسمت وأنا أحرك يدي بلا مبالاة هامسًا:

- لا يهم صرت في أمان، لم يتبقَّ غير ثوان..

شيء جعلني أتوقف، ترقب وتركيز سحبني لمنطقة مظلمة داخل مخي، ما هذا الإحساس الغريب الذي يتملكني بالهدوء؟! المشاهد تمر أمام عيني ببطء، نظرت خلفي ثانية، لمحت كرة مستديرة متجهه نحونا، تتحرك في بطء مريب، جميع من معي يصرخ في رعب بطريقة مضخمه، "مونيكا" "جوزيف" احتضنا بعضهما ويقذفان بحالهما إلى الماء بطريقة كارتونية ساخرة، البحارة يتحركون نحوي، يتحدثون بصوت كما لو أنه منطلق من جوف الماء، يقولون شيئا ما..

أوقفهم صوت انفجار عالي صم أذني..

طاروا ثم سقطوا في البحر قطع مشوهة ومحروقة، نظرت نحو "ميخائيل" لم أجده، تحول المشهد إلى لوحة سريالية، أكره اللوحات السريالية، دائما أراها فوضوية.

"مونيكا"

"جوزيف"

مشوهان، هذان البغيضان يحتلان المشهد من جديد، أبيض وأحمر يلوثان مجال رؤيتي، صوت مبحوح يصم أذني، همس يفقدني التركيز، روحي تسحب مني، البحر غاضب، مستمر في إصدار ضحكات ساخرة، وجه رمادي يحتل المشهد، أجنحة سوداء تغطي الكل، سواد يبتلع كل المشهد ويسحبني داخل جوفه، وجع لا يوصف ينهش جسدي.

انتهت

"عن طريق الخطأ!"

جو عاصف، سماء ملبدة بالغيوم، فالعواصف والزوابع تتصارع فيما بينها معلنة سخط الطبيعة على أولادها من البشر، سيول أدت لفيضانات أغرقت الساحل، بحر هائج يزأر وتتلاطم أمواجه بلا رحمة، الريح تعوي كما ذئب يحتضر، تعتصر السحب لترسل صواعق تكهرب ما تلمسه، الحرائق مُنتشرة هنا وهناك بسبب الطقس الكئيب..

غابات تدفع ثمن غضب الرب علينا، أسبوع كامل تعاني البلاد سوء الأحوال الجوية، تدفع ثمن أخطاء البشرية، الجرائد لا حديث لها سوى من قتل ومن ضاع ومن فُقد وسط هذه الأجواء المماثلة ليوم الحساب، موت يسبقه دمار وخراب يلائم؛ بل يماثل ما أشعر به بسبب إحدى القضايا الموكل إلي الدفاع عن المتهم فيها غدًا.

شهرتي الجامحة في الأوساط السياسية بأوهايو على المحك؛ سمعتي كمجادل سياسي عتيق ومحامي ناجح لا تقف أمامي أيه قضية شائكة، معروف عني أني أجيد إخراج موكلي من السجن مهما كان المستنقع الغارق فيه، تجلب شهرتي أصعب القضايا وبكل ثقة أجد دومًا المخرج لانتشالهم من البؤس ليحصلوا على البراءة وأعيدهم إلى الحياة من جديد، يخرجون منتشين متفاخرين في براءة طفل رأى الحياة للتو.

صعوبة ما أقبل من قضايا هي سبب شهرتي الواسعة في طول البلاد وعرضها، أكسبني الأمر العديد من المعارف والأصدقاء والكثير من الثروة، أكسبتني كذلك العديد من الأعداء الكارهين لنجاحي أو لإخراجي خصومهم ليتنفسوا حرية غير مستحقة كما يرون، لكنني أرى أنه طالما لديهم ثمن حريتهم فلماذا نبقيهم خلف القضبان؟.

غدًا إحدى هذه القضايا، قضية لفرط غرابتها ستكون علامة فارقة في سجل تاريخي الوظيفي، ستجعل عام ١٨٧١ مميزًا في حياتي ورصيدي البنكي، فغدًا جلسة الاستماع إلى دفاعي عن المتهم "توماس مكجيهان"، ذلك الأخرق المتهم بإطلاق النار على المدعو "تورن ميزر" خلال شجار في أحد البارات، يدعي براءته، ويملك المال لكنه يفتقر الى شهود تثبت أقوله..

لم يقدم عامل البار جديدا أو شيئا مفيد، اثنان بدآ الشجار كما العادة على أشياء تافهة، يحدث كثيرًا في كل البارات، الاثنان كانا سكارى، لم يلحظ شيئا مختلفا هذه المرة، حتى سمع فجأة..

دوي الرصاصة التي أنهت حياة المسكين "تورن" كما يناديه في التو، كان المسكين ذو بنية ضعيفة، تثير سخرية الجميع وتهكمهم عليه، أيضا كان عصبي المزاج يُثار بكلمة ويتحول في لحظة إلى سحلية تتقافز في مكانها دون أن يستطيع فعل شيء مفيد لتبريد ناره المتأججة غضبًا.

باقي رواد البار، نفوا متابعتهم لما حدث حتى هذه النهاية، وبالتالي لا يستطيعون تبرئة أو إدانه المتهم "توماس"، هو المسكين في نظري؛ فهو يدفع ثمن امتلاكه جسد حيواني ضخم كما ثور يصارع داخل حلبة أسبانية.

جمعت تفاصيل الحكاية وعرفت أن الاثنين بدآ العراك بعد أن دخل "تورن" البار بدقائق، فلقد ألقى "توماس" عليه بعض النكات اللاذعة، ثم سخر كالعادة من هيئة "تورن" السخيفة المستفزة، كل هذا كان من باب المزاح ولمشاكسته وإثارة أعصابة المهتاجة دومًا بسبب وبدون، تطاول "توماس" وهو يصف قصر قامته ونحافة جسده، كان "تورن" يحاول التماسك مجيبًا:

- على الأقل لست كما ثور في حلبة مصارعة يا خرتيت.

استمر "توماس" في الضحك ولم يهمه ما قيل له، ثم سأل غريمه إن كانت والدته تأكل طعامه وتترك له الفراغ ليتقوت منه، ثم واصل إلقاء مزحات أخرى عن أنه

لا يستطيع البقاء في عمل لأكثر من يومين بسبب ضعف قوته وعدم ملاءمتها إلا للأعمال الحقيرة الشاذة مثل تنظيف الحدائق، ورعاية الحيوانات الأليفة، اقترح عليه أن يتحول إلى جليسة أطفال ليضمن وظيفة ولكنه عاد للضحك بسماجة كما قال صاحب البار مضيفًا؛ "حتى هذه ليست مضمونة".

كان "تورن" يتلقي كل المزاح في صمت حتى وصل "توماس" لموضوع جليسة الأطفال فلقد اعتقد أنه يسخر منه لتخلي صديقته جليسة الأطفال عنه منذ يومين، فهاج وثار وبدأ يهاجم "توماس، يعلم الموجودين النتيجة مقدمًا لذا عاد كل منهم إلى ما كان يفعله قبل دخول "تورن" إلى البار، وتركوهم يصفون ما بينهم بأنفسهم. أووف، ألم يفكروا ولو للحظة باحتمال مقتل "توماس" بضربة سكين مثلا من ذلك الفأر "تورن"؟، يرون الجميع مساكين حتى تحدث مصيبة، من القاتل إذن ومن المجرم؟! بشر حقراء..

ذهبت في نوم عميق، واستيقظت بعد بضعة ساعات، الأرق يخنقني، ارتديت ملابسي ثم خرجت من غرفة النوم لأجلس داخل مكتبي أفكر، بعد ساعات علي إقناع هيئة المحلفين ببراءة "توماس"، هو يصر على برائته ويراني منقذه، إذن هو بريء كما زهرة برية..

اعترف بأنه سخر من القتيل، وبأنه من بدأ مناوشة القتيل ليُضحك أصدقاءه، ذكر بالتفصيل كل ما حدث ليلتها، تطابقت اعترافاته مع شهادة صاحب البار وشهود العيان، كلها أمور تحدث كثيرًا..

كان يمزح مع "تورن" وسخر من شكله وهيئته، فغضب وتحامق وحاول مهاجمته، ألقى به بعيدًا عنه؛ فسقط على الأرض كما ريشة طيرها النسيم، لم يستطع مقاومة الضحك فهاجمه "تورن" ثانية وحاول سحب مسدسه ليهدده ويثير خوفه كنوع من الانتقام من "توماس"، فما كان منه بالتبعية لمنعه إلا محاولة إزاحته بعيدًا عنه وضربه بقبضة يده في وجهه، وقع "تورن" على الأرض وهو لازال مُمسكًا بالمسدس، فجأة حدث ما حدث، كل هذه الفوضى حدثت في لمحة البصر.

هذه هي النقطة التي علي استغلالها..
علي إثبات أن القتيل حاول إطلاق الرصاص بمسدسه الخاص على موكلي أثناء وقوعه على الأرض، في تلك اللحظة الحاسمة؛ وهو يستند على الأرض في وضع الركوع انطلقت الرصاصة، كيف أثبت هذا؟ هذه هي المعضلة، كيف تثبت " كليمنت فالانديجهام" قصتك؟، ستتحدث عنك "أوهايو" كلها وتزيد شهرتك وتفوق السماء علوًا، كيف أثبت هذا؟!
أشعلت غليوني لأستطيع التركيز أكثر، ظللت أراقب الدخان المتصاعد وهو يتراقص أمام وجهي بلا اكتراث بأفكاري العقيمة عن إيجاد مخرج مناسب.
تركت مقعدي خلف مكتب عتيق شديد الفخامة، يناسب مكانتي الاجتماعية والوظيفية، دورت حول المكتب ثم وقفت جوار نافذة الشرفة أتابع السائرين في الخارج متدثرين بأردية من صوف تمنحهم الدفء في ظل هذا الجو المرعب، لولا الأبنية العتيقة لطار السائرون وصعدوا إلى السماء دون أدنى مساهمة من مظلاتهم الرقيقة في مواجهه الرياح الصارخة في الجميع.
تناولت زجاجة النبيذ الأحمر وصببت كأسا لأتناوله على مهل كي يساعدني على التركيز، كأس ثانٍ، ثم ثالث، ثم رابع، مع الخامس كانت الفكرة قد اختمرت داخل رأسي!!، هتفت ضاحكًا هذه هي الأفكار، أيها النجيب الفذ!!، علي مضاعفة أجري بعد ساعات سأكون ممثل عبقري، فعلي تمثيل الجريمة أمام هيئة المحلفين، سيرونها رؤية عين، سأريهم الدليل العملي وهو خير إثبات على براءة موكلي، نعم..
تلك الحيلة الصحيحة لهذه المرة، يا لذكائك "كليمنت"، على الشيطان أن يصفق لأفكارك حتى تكل يداه من التعب، بل عليه أن يجلس على عرشه وينصبك ولاية عهده.

عدت لسريري واستسلمت لنوم عميق، استفقت منه على صوت منبهي المزعج لكنني كنت أشعر بإثارة رهيبة منحتني طاقة عظيمة للاستيقاظ، بدلت ملابسي سريعًا وتوجهت إلى المحكمة، حالة من الهدوء تعم القاعة..

كل فترة أشير إلى "توماس" بعلامة النصر لأطمئنه مع ابتسامة ثقة تمنحه الأمان، يعيد الابتسام متفائلا ملوحًا واثقًا من قدرات محاميه، أخيرًا حانت اللحظة، هيئة المحكمة تناقش القضية، يُنادى على اسمي..

السيد " كليمنت فالانديجهام"..

تقدمت منتشيًا محافظًا على روب المحاماة كي لا يتجعد، تحاول بدلتي الغالية الظهور لتعلم الجميع أنها من ماركة شهيرة تليق بمكانتي، عطري يسبقني ويسابق الهواء في الوصول إلى خياشيم كل من في محيط وجودي، اقتربت من منصة هيئة الدفاع مظهرًا الثقة والفخر بنفسي وبقدراتي، متحركًا في شموخ يليق بي وأليق به، أخرجت أوراق القضية من الحقيبة بهدوء.

رفعت رأسي لأوزع الابتسامات، ثم بدأت في المبارزة بكلماتي، سرقت انتباه الجميع ولاعبتهم بعصاي السحرية وأنا أتفنن في الدفاع عن المتهم..

فندت كل كلمة قيلت عن المتهم والقتيل، فندت الأوراق والمستندات المعيبة الناقصة لدليل إثبات قوي، ثم أنهيت دفاعي بتفجير قنبلتي، قلبت الطاولة على رؤوس الجميع، أطلقت بخور سحري ليتشتت الانتباه ويبهت الجميع ففتحوا أفواههم ببلاهة، حدث هذا حينما أخبرتهم بتفسيري وتحليلي لما حدث ثم ختمت بقولي..

سأثبت الأمر لهيئتكم الموقرة، اقتربت من الحارس الواقف جوار المتهم، وفي خفة وسرعة سحبت مسدسه، شهق الجميع، وسادت القاعة حركة من الهرج والمرج، صُدم القاضي وهيئة المحلفين البعض منهم صرخ فزعًا، المفاجاة كما ألجمت بعض الألسنة، جمدت الجميع في مكانه، في لمح البصر كنت قد ركعت وأطلق الرصاص في المكان المفترض وجود القاتل فيه.

إحساس غريب تملكني، سمعت صراخ أعلى، فوضى وضجيج احتل مجال رؤيتي، أغمضت عيني وفتحتها فوجدت الفوضى قد زادت وملأت قاعة المحكمة، البعض يحاول الخروج والبعض يحتمي بزميله المجاور له والبعض اختفى أسفل مقعده، إحساسي الغريب يزيد، لا أشعر بشيء، البرد يتملك جسدي، القاضي يدق على المنصة، يصرخ..

هدوء.. هدوء ليلتزم كل شخص بمكانه،

الحارس المصدوم يقترب مني، وأنا..

أنا جالس مكاني على الأرض، لا أقوى على الحركة، عيناه مرتعبة، نظرت حيث يدقق، يا ربي، ما هذا؟.

دماء على ملابسي، دماء تغطي صدري، لقد ثقبت الرصاصة صدري، ألهذا أشعر بالبرد؟..

حاول الحارس الاعتذار وهو يجلس بالقرب مني مبديًا أسفة لحدوث هذه الكارثة، أنهى حديثه بقول:

– ليتك سألتني قبل أن تنفذ فكرتك، أعتذر ثانية مستر "فالانديجهام" مسدسي كان محشو بالرصاص، يا ربي لماذا لم تسألني قبل أن تفعل هذا؟، وضعتني في مأزق كبير، لا تقلق سيأتي الإسعاف حالًا، هل تسمعني؟!

أخيرًا استوعبت ما حدث واستطعت الحديث لأهمس له:

– عليك اللعنة، كنت أشعر بأنها قضية منحوسة، لا تقلق يا صاح، قتلتني وستنال براءة مثل الوغد هناك في القفص، لقد صحت نظريتي وسينال البراءة بكل سهولة، وأنا من دفع مقابل حيلتي، أوه الدنيا تظلم أنقذوني، بالله عليكم ائتوا بالنجدة..

انتهت

"الموت بحمالة الصدر"

– ألو "جوزفين" مرحبًا أيمكنك المرور علي لنذهب إلى العمل سويا؟.

سألتها باستهتار:

– هل تعطلت سيارتك من جديد؟

توقعت أنها ابتسمت رغمًا عنها مجيبه إياي:

– نعم بالأمس ولازالت في الصيانة سأستلمها غدًا.

لم أطل الحديث وأخبرتها أني سأفعل بعد ربع ساعة منبهة على أن تنتظرني خارج المنزل وإلا سأتركها..

كانت هذه صديقتي وزميلتي المحامية "نانسي"، نعمل معًا في شركة محاماة واستشارات قانونية خاصة منذ عشر سنوات، صرنا صديقتين مقربتين ونتبادل الزيارات العائلية كثيرًا، تقطن بالقرب مني، فهي على بعد شارعين فقط من برجي السكني.

صديقها "آرثر" محاسب في شركة مقاولات كبيرة، لم تنجب بعد ولا أنا، لا وقت للإنجاب وسط كم الضغط والضغوط بسبب عملنا، كل ما نفكر فيه هو تأمين وضعنا المهني قبل البدء في التفكير بهذه الأشياء.

انفصلت عن صديقي الطبيب "إريك" منذ شهر، زادت الخلافات بيننا في الفترة الأخيرة كثيرًا جدا؛ بسبب انشغال كلا منا بمستقبله المهني، أعود من العمل ليخرج هو إلى المستشفى الخاص والتي وصل فيها لمكانة ومركز متميز، فقدنا الكيمياء بيننا، ضاعت حلقة الوصل فكانت النهاية الحتمية والمتوقعه من الجميع.

عمل.. عمل

طيلة الوقت عمل والقليل من الوقت متاح للترفيه بسبب تضارب أوقات فراغنا مما أدى في النهاية لفجوة واسعة تفصلنا عن بعضنا، لا وقت لنضيعه في عتاب أو حتى إصلاح ما فسد، لا أحب الأشياء المكسورة ولا العلاقات المشوهة..

اخترنا الافتراق بإرادتنا كي لا نخسر صداقتنا، هي أهم من الاستمرار تحت مظلة وَهْمٍ مشاعر غير موجودة حاليا، لماذا نعذب أنفسنا بأنفسنا؟، الحياة لا تستحق تعذيب أنفسنا أو الآخرين لأجلها.

رتبت "نانسي" مع "آرثر" عشاء فاخر في أحد مطاعم لندن الفخمة احتفالًا بمرور عشرة أعوام على عمر صداقتنا وعملنا في الشركة، أخبرتني أن أحد زملاء صديقها سيحضر معنا الاحتفال، أظن أنه شخص تحاول إدخاله حياتي، هذه عادتها، لم أمانع، الأمر ظريف، فلن أعيش راهبة بعد "إريك"، لجسدي علي حق ولا يجب أن أستخف بمتطلباته وسط حروبي اليومية للاستمرار والبقاء.

أوف سأتأخر، علي الخروج الآن للحاق بالمناكفة "نانسي"، تعلم كم أنا جادة في ما يخص المواعيد ودقتها، ولا يمكنني إفساد ذلك الآن، يبدو أننا سنظل طيلة اليوم معًا بعد تعطل سيارتها الجديدة، رغم أنها ماركة حديثة إلا أنها تعطل كثيرًا بسبب سوء استخدام صديقتي العزيزة..

لا تريد الاعتراف بتاتًا بأنها قائدة سيارات فاشلة، إذا لم تصطدم برصيف أو عمود قد تموت حزنًا وكمدًا، أظن أنها تحب ما تحدثه من مصائب كل مرة تقود فيها السيارة، أذكر أن "آرثر" ناشدها كثيرًا وتذلل لها أن تحضر دورات تدريب على القيادة من جديد، أو تختار سائقا خاصا من الجنسيات الأسيوية فهم زهيدي الأجر حفاظًا على حياتها؛ لكنها تأبى بحجة:

– كرامتي لا تسمح

أية كرامة عندما يمس الأمر العمر المهدر على عتبات ضغطة خاطئة على دواسة البنزين أو الفرامل، ارحمني يا الله، أخيرًا رأيتها تقف بجوار الرصيف وهي تتأفف:

– لم أتأخر كثيرًا فقط خمس دقائق "نانسي".

هتفت بصوت عال جذب انتباه المارة:

– عشر دقائق يا خرقاء، لكنني معتادة على مواعيدك وساعاتك المعطوبة.

همست نحوها وأنا عاقدة حاجبي غضبًا:

– أتريدين إفساد سمعتي!، أنا أكثر شخص ملتزم بمواعيده، سأشغل بعض الموسيقى الهادئة لتريح أعصابك.

زفرت في قوة قبل أن تضيف في برود:

– دعي هذه الترهات لغيري، ثم إن أعصابي في ثلاجة كما تعرفين لا يوجد من أو ما يستطيع إثارتي مهما كان.

انطلقت بالسيارة وأنا أبتسم مكملة بنبرة سخرية:

– تعجبني ثقتك في نفسك هذه.

نظرت نحوي في سخرية وهي تجيب:

– ويعجبني تصديقك لأكذوبتك عن دقة المواعيد.

لم يهمني ما قالت فحركت كتفي في لامبالاة قائلة:

– يبدو أن ذكرى معرفتنا وعملنا معًا عزيزتي "نانسي" لا تعجب الرب فأرسل جحيمه إلينا ليحتفل معنا.

غضبت لقولي فأسرعت تجيبني بصوت وقور:

– الرب عطوف ورحيم، لا تعيدي مثل هذه الأقوال مرة ثانية، فلتحمنا يسوع الرب.

كدت أصدم السيارة المتوقفة أمامي بعدما فقدت القدرة على الرؤية بسبب الضحك، تبدو صديقتي من عالم آخر وهي تدعي التدين بهذه الطريقة، لم يمر سوى شهر على اعتيادها الذهاب لحضور لقاءات الوعظ داخل الإبراشية القريبة من محل عملنا وتحولت إلى واعظة، ربما صارت راهبة دون أن أدري!

ظللنا نمزح ونتبادل النكات حتى وصلنا بعد ساعة إلى مكاتبنا في الشركة، وصلنا بسلام في ظل هذا الجو البشع، كأنما الطبيعة تظهر سخطها على البشر على هيئة برق ورعد وأمطار غزيرة.

مر اليوم بسلام وأخيرًا انتهت ساعات الدوام، سأمر على "نانسي" ونذهب سويا للاحتفال بسنوات صداقتنا، سأطلب منها تأجيل الموعد، فلا أحب الجلوس خارج منزلي تحيطني هذه الأصوات الصارخة، أكره فصل الشتاء بسبب الزوابع والكآبة التي تغلف سماء لندن بسبب الغمام والضباب..

سحب سوداء تنافس السحب البيضاء في الانتشار، يتمدد اللون الأسود ليغطي السحب ويكون غمام كئيب المنظر، أمطار غزيرة، أظنها ستتحول بعد قليل إلى سيول تغرق انجلترا كلها، كيف نستمتع في مثل هذه الأجواء؟.

يبدو الأمر شديد الوقاحة في نظري، بدلًا من الاستماع لموسيقى هادئة؛ سأتناول العشاء وأتعرف بصديق على شرف ضجيج موسيقى الطبيعة الغاضبة، شكوت لصديقتي "نانسي" من مدى رعبي بسبب هذه الأصوات، وخوفي الخروج في هذا الجو البشع، فسخرت مني قائلة:

– كأنك لم تعتادي هذه الأجواء "جوزفين"!؛ هذه إنجلترا وتلك لندن عزيزتي، منذ متى تخافين من أي شيء؟!

أجبتها بصوت مرتعش:

– الجو متقلب "نانسي" أشعر أنني في خضم حرب، قنابل، تفجيرات، صوت الريح كما بشر تصرخ بلا هوادة، أشعر بالرعب حقيقة، هل يمكننا تأجيل الحجز لأجلي؟.

أسرعت تقاطع توسلاتي نافية:

– لن يوافق "آرثر"، تعلمين مدى تشدده، كما أنهما بالفعل في الطريق إلى المطعم، اتصل وأكد الحجز، هل تريدين إحراجي معه؟! قد يتركني لمثل هذه الحركة صديقتي، تعلمين أنه سيفعل.

أصدقها هو مجنون بالقدر الذي يسمح له التخلي عنها ببرود لإخلافهما موعد اتفقا عليه:

– اللعنة، اللعنة عليك "آرثر" هي ليلة وستمر دعينا نذهب.

هتفت مسرورة:

– هيا دوري أمامي لأتأكد من هيئتك، تبدين رائعة "جوزفين" هيا لا أريد أن يعلم صديق "آرثر" أنكِ تستمتعين بالتأخر عن مواعيدك منذ البداية.

أسرعت أنفي التهمه:

– لا أفعل، ثم يا جاهلة، كلما تأخرنا كلما تشوق لرؤيتنا، قد لا يعجبني في النهاية، من يدريكِ؟

أجابتني وهي تعقد ذراعيها أمام صدرها في ثقة:

– أثق في ذوق "آرثر".

حاولت إثارتها مضيفة:

– سنرى.

سارت أمامي دون أن تجيب، أو تسقط في فخي، أظنها تجاهد نفسها كي لا تمنحني أي مبرر لإفساد الموعد أو تعطيني حجة للجلوس داخل منزلي بأمان، اضطررت لتشغيل مساحات الزجاج طيلة الطريق، لا أستطيع الرؤية مع كل هذا المطر وكأنما نحن تحت مغسلة سيارات، الأصوات خارج سيارتي مزعجة ومثيرة للأعصاب، تفزعني رغم أحكامي غلق الزجاج، تتحرك عيني تلقائيًا خلف كل صوت "طراخ" تلتقطه أذني.

الأبنية مغسولة، الشوارع تبرق من النظافة، البشر واجمون متدثرون بملابس من الفرو أو الجلد الثقيل، يخبئون رؤوسهم داخل قبعات متنوعة الأشكال والبعض اختار قبعة صوفية لتقيه شر البرد..

أغلب السائرون يحملون مظلات تقيهم هطول الأمطار، أنا مضطرة للخروج بسبب صديقتي البلهاء لم هؤلاء خارج بيوتهم، أفزعني صوت "نانسي" الحاد وهي تهتف:

– أخيرًا وصلنا قرب المطعم بتأخير متوقع حوالي نصف ساعة، أين ستركنين السيارة لا يوجد حيز في مجال نظري قريبا منه؟.

حاولت البحث بعيني وأنا أجيبها في وجوم:
– يمكننا النزول هنا، لأستطيع استغلال هذه المساحة في صف السيارة، لكن سنضطر لقطع الطريق سيرًا حتى نصل، ما رأيك؟!
صديقتي اللامبالية دوما همست في بلادة:
– لا مانع علينا أن نسجل هذا اليوم في أجندة مغامراتنا شديدة الإثارة، تذكري ذكرانا في شتاء ١٩٩٩ صديقتي.
ضحكت ساخرة وغصة مرة تحتل حنجرتي:
– سأفعل بالتأكيد، لنخوض المغامرة الآتية ثم أسجل كل ما تريدين أيتها المجنونة، خذي أمسكي مظلتي سنحتمي بها معًا.
نزلت من السيارة وهي تجاهد لتفتح المظلة، ركزت في صف السيارة لبرهة لأفيق على صوت صراخها:
– يا الله طارت المظلة بكل خفة "جوزفين"، ماذا سنفعل؟، سنبتل ونمرض هكذا؟!.
أكرهها وأكره المظلة وهذا الجو الكئيب، أكره السيارة والمطر، أكره الشتاء، أغمضت عيني وسددت أذني بيدي حتى هدأت قليلًا، تنفست لثوان ثم خرجت من السيارة وتأكدت من غلق بابها، تلفت حولي وأخيرًا ابتسمت وأنا أشير للاتجاه الآخر قائلة:
– انظري هنا، توجد شجرة على الجانب الآخر من الطريق، أسرعي لنحتمي أسفل فروعها.
صرخت نحوي وهي تحاول إدعاء العقل، وتدعي الحكمه ناصحة بصوت حاد كما صوت سيارة تحتضر:
– خذي حذرك، احترسي "جوزفين" لا نريد أن تفتح إشارة المرور ونصدم قبل أن نحتفل بهذا اليوم الشؤم، أعطيني يدك، اقتربنا من الشجرة أسرعي قليلًا..
كنت أضحك فلقد تحولت من واعظة إلى شيطان يسب ويلعن في لحظات، صوت كعوب أحذيتنا يرن على الطريق كما سيمفونية رعب أصلي للجبار فرانكشتاين..

أشعر بأن طبلة أذني ستثقب..

ضجيج..

مطر..

رياح..

رعد..

برق..

ظلام يتراقص على حوافه ضوء مصابيح تزين الطريق، ليل يظلله الكآبة والضباب.

فجأة رن هاتف "نانسي"، انطلقت تسرد على "آرثر" قبل أن تسمع ما يريده ما مررنا به حتى اللحظة، بصوت عال يسمعه من يقطن الدور العاشر، غير مبالية بأي شيء، وصلنا أسفل الشجرة فتنفست مودعة صديقها:

– يا للجحيم أخيرًا وصلنا في سلام، لم نبتل كثيرًا، بدأت حدة المطر في الانخفاض، سنلتقط أنفاسنا أسفل شجرة جوار المطعم ثم نتحرك باتجاهه، سلام حبيبي.

غرقت في الضحك على منظر شعر "نانسي" الهائش، فأخرجت مرآتها وعدلت من تسريحتها وهندامها، ثم فردنا جسدينا كما جندي مشاة مقررين الانطلاق سريعًا إلى المطعم..

شعرت بألم فجائي صرخت بقوة:

آه

أظلمت الدنيا فجأة، ناديت على "نانسي" مستفسرة:

– ما الذي حدث لي؟، لا أستطيع الرؤية

لم أسمع صوتها، الظلام يلفني وجسدي يرتعش كما لو كنت أمسك سلك كهرباء، ما هذا التيار الناهش لأعصابي وجسدي، صرخت ثانية بقوة أكبر:

– أأأأأأأ..

.

السادة المشاهدين نوفيكم بحالة الطقس لهذا اليوم..

هذا ولقد ضربت عاصفة شديدة مدينة لندن اليوم؛ مما أسفر عن تعرض بعض المباني للتلف والدمار، بالإضافة إلى سقوط بضعة أشخاص، وبعض الوفيات، بسبب الصقيع والبرق، أغربها كانت وفاة فتاتين كانتا تحتميان أسفل فروع شجرة كبيرة من المطر.

ذكر تقرير الشرطة؛ أن الكشف الطبي على الجثتين أظهر أنهما لقيا حتفهما إثر صاعقة رعدية، فلقد وجد الطبيب قطع معدن رفيعة داخل حمالات الصدر الخاصة بهما جذبت البرق ناحيتهما وعملت كموصل كهربي، أودى بحياتيهما.

انتهت

رائحة الورق مثيرة، مغرية بالنسبة لي ولأخي "لانجلي" أكثر من ظهور "مارلين مونرو" أمام منزلنا لتقديم استعراض راقص عارية الجسد، "مارلين".. "مارلين" تلك الساحرة المعجونة من دقيق الموز وعسل الفراولة ومخبوزة بأشعة الشمس، لكن لا مجال للمقارنة أو التنافس بينها وبين تجميع الجرائد وكل قديم، هي أشياء أكثر جاذبية وإمتاع من كل نساء الدنيا.

يفتقد من نعرفهم لشغف وحب هذه الهواية، قاطعنا الجيران بعدما اتهمونا بالجنون المطبق، يتهموننا بتجميع القمامة وتلويث محيط منازلهم، مستاؤن لا يقدرون قيمة ما نحصل عليه من كنوز، يومًا سنصير من أغنى الأغنياء بفضل هوايتنا الشاذة من وجهة نظرهم القاصرة، يتربصون ويتسببون في مشاكل جمة لنا مع إدارة الحي وممثلي الضمان الاجتماعي، لا يهمني الجميع، يكفيني وأخي ليزيد إيماننا بأهمية ما نفعل هو محاولات العديد من اللصوص السطو على ممتلكاتنا، هل تسرق القمامة؟، هم إثبات على أهمية ما لدينا.

حفاظًا على ما نجمع من جرائد وحاجيات متعددة قديمة، ننصب الشراك والفخاخ في ممرات المنزل، وضعت منذ أيام فخ كهربائي أمام المدخل الأمامي للمنزل وأمام مدخل الباحة الخلفية، لا يمكننا إتاحة الفرصة لأي لص حقير للاستيلاء بكل بساطة على ما ظللنا لسنوات نجمعه، أطنان وأطنان مما يسميه الآخرون مخلفات.

وصلت مشرفة اجتماعية تبدو خمسينية العمر، منذ قليل خرجت تتجول بين غرف المنزل للتأكد من مدى استحقاقي وأخي "لانجلي" لراتب الضمان الاجتماعي، عادت إلي والامتعاض بدا واضحًا على وجهها الذي تجاهد ليبدو بشوشا، أخبرتني ببرود وسماجة أن المنزل غير صالح للاستخدام الآدمي، بأسلوب قميء قالت مندهشة:

– كيف تعيش "هومر" وسط هذه الأكوام من الفضلات والقمامة؟!
ضممت حاجبي بغضب قبل أن أقلدها وأجيب ببرود:
– ليست فضلات ولا قمامة هي كنوز، كما أنها هوايتي المفضلة مع أخي عليكِ احترام ذلك.
ابتسمت باستخفاف مضيفة:
– هواية؟!، تجميع مخلفات غيرك هواية؟ علي إبلاغ المسئولين عن هذا، عذرًا سيد هومر" سأكتب عن ذلك في تقريري، في ظني أخوك لا يصلح لرعايتك وعلينا إيجاد ملجأ يستطيع العناية بحالتك بطريقة أكثر احترافية وإنسانية، كيف يهمل ويعرض حياتك للخطر هكذا؟ ماذا لو سقطت أحد هذه التلال عليك كيف ستنجو وأنت طريح الفراش هكذا؟، سأثبت في التقرير إهمال أخيك ولا مبالاته بحياتك وسلامتك، سيتم توجيه إنذار أولي له بهذه الملاحظات وإذا لم يستجب سنضطر لقطع الإعانة الشهرية عنه وننقلك إلى مكان آخر أكثر ملائمة لحالتك.
كانت تهرتل بالحديث وهي تدور في الغرفة ولا تريني وجهها، انتظرت ريثما نظرت نحوي ثم صرخت فيها لأوقف تلك العجوز الشمطاء عند حدها:
– ما كل هذا!!، "لانجلي" يهتم بي جيدًا، وأنا سعيد هنا أعيش وسط ما أحب ومن أحب، لا أريد الانتقال لمكان آخر، أرجو أن تراعي هذا في تقريرك سيدتي إن كانت تهمك مصلحتي كما تزعمين!.
ظلت تكتب في دفتر ملاحظاتها مما أرعبني فاضطررت لتغير أسلوبي، شخصية عنيده سمجة، لم تجدي محاولاتي ولا تذللي لكتابة تقرير حيادي ينصفني وأخي، هددتني بقطع الإعانة عني وعن أخي إذا أبقينا على هذه المزبلة كما أسمتها، ثم خرجت غاضبة.
لا أعرف لمَ يحجرون على هوايتنا لمجرد أنها لا تنال إعجابهم؟، بشر قساة لا يهتمون إلا بما يريحهم هم، لا أريد الابتعاد عن منزلي ومحتوياته التي ظللنا لأعوام

نجمع فيها، ألا يكفيني من العذاب أنني مقيد في سريري لنهاية عمري!!، لن أسمح لأي من كان بحرماني مما أحب، قررت بيني وبين نفسي أنني لا أريد نقود إعانتهم، سأتدبر الأمر مع أخي، علي أن أهدأ الآن سيعود "لانجلي" إلى المنزل قريبًا سأقص عليه ما حدث وسيجد حلا، هو دائمًا يجد مخرج لأية مشكلة تقابلنا.
سمعت صوته يدخل من الباب فناديت عليه:

– "لانجلي" أخيرًا وصلت، لقد جاءت تلك العجوز الشمطاء مسئولة الرعاية، ثارت وتوعدت بقطع الإعانة إن لم نتصرف ونزيل أشياءنا ونلقيها خارج المنزل في أقرب مكب نفايات، أسمت كنوزنا مزبلة واتهمتنا بتجميع فضلات ومخلفات الغير، منحتني مهلة أسبوعا كي نزيل ما أسمته أطنان من القمامة وإلا لا نلوم إلا أنفسنا.
ضحك بلامبالاة ثم حاول طمأنتي:

– لا تقلق "هومر" سأجد حل لن ندع أيًا كان يسلبنا متعتنا في الحياة، أو أن يضيع مجهودنا هباء، انظر ما أحضرت اليوم، سأقربه من سريرك لتساعدني، علينا فرزه لأضع كل شيء في مكانه الصحيح.

ظللت أتابع "لانجلي" وهو يرتب ما أحضرة في الأماكن الخاصة به، لمحت تلك اللمعة الشهية في عينيه، أساعده في الترتيب من مكاني بتوجيهه لأماكن الأشياء، الجرائد هنا في الغرفة الأمامية، المجلات بجوارها، بعض من أدوات المائدة تبدو صدئة قليلًا لكنها بحالة سليمة في غرفة المعيشة معها أواني معدنية مختلفة الأشكال والأحجام، كراسات وكتب مهترئة يومًا ستكون إرث كبير عندما تباع في مزاد للأشياء القديمة، أباجورة يدوية الصنع مزينه بالدانتيل وبورود بلاستيكية وأخرى مزينه بقطع من الكروشية، زجاجات عطور فارغة ذات أشكال جهنمية، يبدو أن أخي وقع على منزل فاخر اليوم، توقف عما يفعل لدقيقة ثم توجه نحوي بالحديث ناصحًا:

- بما أن الجميع يتهمنا بالجنون عزيزي "هومر" ولا يقدرون أهمية ما نجمعه، يقللون من شأن هواياتنا، فعلينا الاهتمام نحن بأمرنا، سأرتب ما يوجد بين الممرات، وأخلي مساحه لأستطيع التحرك براحتي، لا نحتاج أي مساعدة أو شيء من غيرنا، فلتذهب هذه الأخصائية إلى الجحيم هي وإعانتها، اللعنة على الجيران وكل مسئولي الحي وكل من يمنح نفسه حق التدخل فيما لا يعنيه، أتفهمني سنعتني ببعضنا أخي العزيز، حسنا؟!

تفاءلت بقوله هكذا سننجو من تقرير تلك المشرفة الغبية، فانطلقت مشجعًا:

- هذا هو أخي العبقري، علينا إحضار بعض من مصائد الفئران وسم للصراصير والنمل، لقد لاحظت تلك المعتوهة صباحًا وجودهم وهددت بإبلاغ مسئولي الصحة، أخاف أن يأتوا ويستولوا على ممتلكاتنا بحجة تنظيف المنزل من القوارض والحشرات.

ابتسم وهو ينحني ليكمل ترتيب ما أمامه مجيبًا بصوت هادئ:

- غدًا أحضر ما طلبت

قلبي يدق بقوة من فرط السعادة، مع هذا سمعت صوت لهاثه من على بعد، يبدو ما يفعله مرهقًا، وددت لو كنت بصحتي وأستطيع الحركة ومساعدته لكنه قدرنا، أخيرًا فرغ من ترتيب ما جلبه اليوم، حملني على ذراعيه لأشاهد ما قام به من تجديدات، مبهج بشدة، أن أري أشيائي حبيبتي مرتبة بنظام، ظهر حجمها الحقيقي وأدركنا كم ما جمعناه طيلة سنوات.

بعد كل هذا كيف يطلبون منا التخلص منها؟، حياتي وأخي متصلة بهذه الأطنان ولا سبيل لفصلنا عنها، طلبت منه أن يتأكد أن الفخاخ حول كنزنا الكبير تعمل، سيموت كل من يحاول الاقتراب من ممتلكاتنا، "لانجلي" الأصغر لكنه يجيد الاعتناء بي ويلبي جميع طلباتي، تركني منذ ساعتين وذهب لتحضير الطعام، همست لنفسي:

- لمَ تأخر هكذا؟!

ناديت عليه بقوة:

"لانجلي".. "لانجلي"

عدت لمحادثة نفسي كي لا أرتعب لغيابه:

لماذا لا يرد علي هذا المعتوه؟!، أين ذهب؟! هل خرج ليحضر مصائد جديدة للفئران دون أن يخبرني؟، ربما غضب مما حكيته وخرج يبحث عن الأخصائية الاجتماعية ليلقنها درسا في عدم التدخل بشئون غيرها وخصوصياته، بالتأكيد هذا ما حدث..

أتضور جوعًا، أشعر أن سكاكينه تقطع في أمعائي، ماذا أفعل الآن لا يمكنني الخروج من الغرفة؟، حتى وإن أسقطت نفسي من على الفراش كيف أتحرك وسط كل هذه الأشياء والمسافة لا تسمح بمرور جسدي؟!

- "لانجلي".. "لانجلي"

أوف على الهدوء، لا داعيَ للقلق سأنام قليلًا حتى يأتيني بالطعام، هذا المتخلف سيقتلني جوعًا.

"لانجلي".. "لانجلي" أين أنت يا صاح؟، الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، الوقت متأخر جدا، لم يعتد التأخر علي هكذا؟!!، الأمر غريب، بالتأكيد هناك ما يريب، ينتابني قلق جم عليه، يا الله.

صبرت قليلًا لكنني لم أستطع الصمود أكثر فصرخت أنادية:

- "لانجلي"، أجبني، عليك اللعنة "لانجلي" أشعر بالإرهاق والتعب، أريد قطرة ماء، يا "لانجلي"

بكيت كما طفل صغير وأنا أشعر بمعدتي تتقطع جوعًا، روحي تتعذب تعبًا كأنما سوف تسحب مني، لم أتناول طعامي منذ الساعة الثامنة صباحا الأمس:

صرخت بقوة:

- "لانجلي" يا رجل أين أنت؟!، مرت أربع وعشرون ساعة أين ذهبت كل هذا الوقت؟!، حتى أصدقاؤنا من الفئران اختفت هل تأمرتم جميعًا لإفزاعي؟! "لانجلي" رائحتي سيئة ومقززة، أريد الذهاب للحمام، أوف، لا أستطيع الصبر على الجوع أكثر، علي التحرك لن أبقى هنا منتظرًا ما لا أعلمه، علي الخروج من هذه الغرفة البائسة، أين ذهب؟ لم يفعل هذا من قبل، ربما أصابه مكروه ولا يستطيع الزحف والوصول إلي؟، تحركت في مكاني وحاولت إسقاط نفسي على الأرض.

آه، اللعنة.. اللعنة، السقوط من على هذا الفراش مؤلم بشدة، اللعنة علي وعليك "لانجلي" كيف نسيتني هكذا؟!

لا.. لا يجب أن أعاود البكاء، الأرض متربة ومغبرة وتتحول إلى طين باختلاطها بدموعي، أوه يا للجمال، ألمح قطعة خبز أسفل هذه الكومة من الجرائد.

- تعالي.. تعالي هيا بهدوء.. بهدوء.. جميل

سحبت قطعة بهدوء، على الحذر كي لا تسقط الجرائد على رأسي، اخرجي أيتها الملعونة، أيته...

كم الساعة الآن؟!

تلفت حولي فيبدو أنني فقدت الوعي لفترة طويلة، لا أستطيع الزحف ومعدتي تقتلني وجسدي شديد الإنهاك ماذا أفعل؟ "لانجلي" أيها الملعون أين ذهبت؟

هل أثر فيه حديث مشرفة الضمان الاجتماعي وتركني وحيدًا وذهب؟ هل تعب من الاهتمام بي وهرب ليبدأ حياة جديدة دون الالتزام بمسئوليتي؟! "لانجلي" عد إلي أحتاجك لا أستطيع العيش بدونك أخي، أخوك الكبير متعب أخي، ربما علي الراحة قليلًا بالتأكيد سيمر شخص علي، "لانجلي" سيعود، لن يتخلي عني، ااه سيعود سأنام قليًا حتى يعود..

نملة، أرى نملة تحمل طعامها، يا نملة تعالي هنا، علي جمع عدد كبير من النمل لأسد بعضا من جوعي الكافر المتملك من أحشائي، لا، سأعود إلى فراشي، ستحضر بالتأكيد تلك المعتوهة من الخدمات الاجتماعية وتنقذني بعد قليل..

.

مرحبًا أعزائي المشاهدين..

وصلنا الآن تقرير بآخر مستجدات البحث عن الأخوين هومر ولانجلي كولير اللذان اختفيا في ظروف غامضة، أُكتشف الأمر بعد إبلاغ أحد الجيران عن صدور رائحة كريهة من منزل الأخوين.

بذل رجال الشرطة مجهودات مضنية لدخول المنزل باءت بالفشل، وبعد أسبوعين من العمل الشاق في إزالة حوالي مائة وثمانين طن من مخلفات وخردة كان يحتفظ بها الأخوان، كدساها داخل المنزل لتغطي الأرض وتصل إلى السقف..

وجد العمال جثة "هومر كولير" ليخرج تقرير الشرطة يفيد موته منذ خمسة عشر يومًا، وقد أكلت الفئران أجزاء كبيرة من جثته المتحللة، وعلى بعد عشرة أقدام من جسده.

وجدت جثة الأخ الثاني "لانجلي" في وضع سيئ أيضًا بسبب هجوم الفئران والصراصير وجحافل من النمل عليها، وجد قابضًا على طبق فيه بقايا طعام متعفن.

من المشاهدات المحيطة بالحادث اتضح أن "لانجلي" وقع فريسة أحد فخاخه، أثناء زحفه داخل نفق بين ممرات منزله لإحضار الطعام إلى أخيه "هومر"، مما أدى لوفاته في الحال متأثرًا بإصابته.

وقد توفى أخوه بعده بيومين بسبب الجوع حسبما وضح تشريح الجثة، ننتقل الآن إلى حالة الطقس..

انتهت

"مبيد حشري"

جو خانق، رطوبة عاليه، الشمس ترتع في السماء متفاخرة بإرسال أشعة مستمدة من الجحيم إلى أهل الأرض، صهد يجفف عود الأجساد الشابة وييبس روح الكهول، نسيم ساخن يغرز خناجره على أعتاب مداخل التنفس فيغلقها، عرق يغرق كل من أتعسه حظه بالحياة داخل جمهورية مصر العربية هذا الصيف خاصة شهر أغسطس المتخذ الأجساد وقودًا، كوارث تملأ صفحات الأخبار بسبب الانهيار الحراري، المياه تتبخر من داخل الأكواب خلال ثانية، الثلاجات تحولت إلى أفران متنكرة، المراوح تمارس مع محيطها لعبة من يُصدر حرارته إلى الثاني أكثر.

أعمل طبيبة في المستشفى العام؛ والتي لم تسلم من تبعات غضب الشمس علينا نحن القاطنين أسفلها، يتوافد المرضى يوميًا كما شلالات نياجرا، يتزاحمون ويثيرون الضجيج ويسببون لنا نحن الأطباء المساكين المطحونين وسط كل هذا الضغط بينهم الضجر داخل قسم الطوارئ، خاصة وأن هناك حالات تصنف تحت بند العجب العجاب، أو غرائب وعجائب.

أطفال وعجائز يعانون الجفاف، وهذا عذر مقبول، مقابل سيدات مصابات بأمراض لا مسمى لها، يأتون بصحبة أزواجهن الفزعين؛ يمارسن دلالهن متذرعين بالمرض ولا مجال للتذمر أو التمرد على هذه السخافات والتعامل بقسوة كي لا تواجهنا شكاوى التقصير والإهمال في علاج هذه الكائنات اللطيفة الرقيقة الناعمة.

بعيدًا عنهن؛ هناك هم، عمال يهربون من أشعة الشمس الحارقة ويتركون أعمالهم متمارضين وعلى صاحب العمل اللجوء لإله الحرارة ربما استطاع إقناعه بتخفيض ضغط هذا الصهد، حالات كثيرة تثير الضحك والاستياء أكثر من إثارتها الاهتمام لبذل مجهود في علاجها، الأيام تمر بأحداث مملة سمجة، ما نراه اليوم رأيناه بالأمس وسنراه غدًا.

أجلس ألاعب الزهق والملل من حولي، يؤرقني تحول لون البالطو إلى الأصفر لاختلاط عرقي بالأتربة السابحة بين ذرات الهواء، لأبدو مجرد عاملة مهمله؛ لا

طبيبة لها وزنها وقيمتها، أراقب مشادات كلامية بين الممرضات الكسالى؛ هذه أخذت الكوب الزجاجي لتلك، وتلك حطمت كرسي هذه بسبب بدانتها، فبمجرد أن جلست على الكرسي المصنوع من البلاستيك تهاوى على الأرض معلنًا انتهاء صلاحيته، ثم حكاية لتسلية الوقت عن الممرضة في قسم الأشعة التي تحب فني التحاليل وتجلب كل يوم سندوتشات لحم مفروم وبرجر وجبن رومي وعصائر متنوعة لتغريه، الجميع يثني على ذكائها فالحكمة تقول "أقرب طريق لقلب الرجل هو معدته".

حاولت استخدام هذه الطريقة مع زميلي دكتور "جابر" أخصائي واستشاري العظام، لكنها باءت بالفشل وتزوج أخصائية العلاج الطبيعي "نيفين"، شقراء، شعر يصل لمنتصف ظهرها ينطلق خلفها كما ذيل حصان بري، جسد متناسق، ملفوفة القوام كما قطعة كيك مغطاة بالزبد، بيضاء كما قطعه جبن شهية، هكذا يقولون عنها مع أنني أراها رفيعة بل نحيفة كما برص، عندما تتحدث تشعرك بأن عصفور احتل أحبالها الصوتية.

اختار تلك السحلية وفضلها علي أنا "ندى" أخصائية الباطنية، ملكة المحشي والبط، لا تستطيع أية طبيبة مهما كانت أن تنافسني في صنع الأصناف المختلفة من الأكلات الشرقية أو الحلويات، لم تغره عيادتي الممتلئة عن آخرها كل ليلة بالمرضى، كنت سأحوله إلى ملك الأطباء بعدما أكثف الدعاية عن عيادته وأوصي باسمه عند مرضاي، المتخلف يظهر اشمئزازه مني كلما رآني مدعيًا إنني أشبه السيد قشطه والخرتيت، يقول عني دوما حتى أمام عيني أنني مدعية علم ومجرد سيدة منزل حالفها الحظ بحفظ بعض الوصفات العلاجية الناجعة، سيندم يومًا ويعود زاحفًا يتوسل أن أتزوجه وحينها سأطلب منه أن يطلقها، لن يرفض فهذه الخرتيت هي من ستنجب له ولي عهد يقر عينه بعد حرمان خمس سنوات مع تلك النحيلة.

رجل سخيف، لماذا يغتر علي؟!

أنا أعلى منه راتبًا، أكثر شهرة ودخلًا، عيادتي يؤمها العشرات يوميًا بينما عيادته خالية على عروشها ويستجدي الزبائن من الممرضات ومعارفه، زوجته المحترمة كسولة مكتفية بدخلها الزهيد من المستشفى، يعلم أن مندوبي الأدوية يتمنون رضائي لأصف الأدوية التي يسوقونها، دخلهما أعلم بمجرد حسبة بسيطة أن دخلهما معًا لا يكفي لنصف الشهر، ولولا إرثه من والده ما استطاع الزواج، لا داعيَ لادعائهما كل هذه الأبهة الكاذبة.

ما لي وقصص الحب البائسة، منذ قليل حدث شيء يثير الاستغراب والرعب في آن واحد..

بينما أتناول بضعة سندوتشات لأسلي وقتي، هببت من مكاني فزعة على صوت صراخ حاد من ناحية البوابة الرئيسية للمستشفى، صحيح أنَّي معتادة على تلك الأصوات وهذه الحركات فكل مرافق يرى مريضه أول وآخر حالة تستحق قيام الدنيا وعدم قعودها إلا بعد شفائه، إلا أن الهدوء العاصف قبل وصولهم مع الأجواء الصيفية الخانقة جعلتني أشرد وأنسى أني في المستشفى.

وصلت فتاة يحملها عجوز على كتفه يبدو من اهتمامه أنها ابنته، وهي حسب تقديري في الخامسة والعشرين، قصيرة ممتلئة الجسد سمراء، يبدو على ملامحها شظف العيش والبؤس، تعاني من تشنجات رهيبة كما لو أن هناك وصلة كهرباء تسري داخلها، جسدها يتصلب ويرتخي في كل نوبة، يخرج زبد أبيض من فمها بغزارة، كل المؤشرات توحي بحالة تسمم شديدة، لسوء الحظ اليوم مناوبتي في الاستقبال، صرخت فيهم:

– اهدؤا نحن في مستشفى تمتلئ بالمرض المحتاجين للراحة.

صرخ العجوز الستيني بدوره وأثر الحر والعرق الذي يغزو وجهه يشوهه بصوت متهدج:

– دكتورة ابنتي فاطمة شربت مبيد حشري يسترك انجديها.

طلبت من الممرضة المرافقة استدعاء دكتور "قدري" لمساعدتي، وإبلاغ زملائها لتجهيز غرفة العمليات وطلب محلول لغسل معدتها، هرع نحونا اثنان من الممرضين وضعاها على الترولي، ونقلاها إلى غرفة العمليات..

تجهزنا سريعًا ثم بدأت محاولات إسعافها، حالتها تسوء مع كل ثانية لا دقيقة تمر، فجأة توقف جسدها عن التشنج، سكن بلا أدنى إشارة توحي بالحياة، طلب دكتور "قدري" جهاز الصدمات الكهربائية، لإنعاش قلبها..

١ ٢ ٣

Clear

ابتعدت لمسافة، أراقبه وقلبي يدق بعنف، حاول ثلاث مرات متتالية لكن القلب أصر على موقفه وأعلن تمرده على الحياة، رحلت الروح ساخرة منا نحن الأطباء، ضاحكة على الصهد وجنونه، هل قتلها الحر؟!

سجلنا تاريخ ووقت الوفاة، ثم تركناها لتتعامل الممرضات بالأسلوب المعتاد، سيتم استدعاء طبيب التشريح لتحديد سبب ما حدث قبل استخراج شهادة الوفاة، خرجت مسرعة خلف دكتور "قدري"، هو رجل رغم سنوات عمره الخمسين، يمتلك جسد شاب في الثلاثين، رياضي يثير إعجاب كل من يراه من نساء ورجال، بسيط في تعامله، خفيف المعشر، حسن الأخلاق والظل، يمزح بحدود ويغضب أيضًا بحدود، مثقف جدًا في كل مجالات الحياة..

جواره أشعر أنني تاجرة ولست بطبيبة، لولا خوفي منه لحاولت لفت انتباهه إليَّ خاصة وأنه أرمل، لديه ولد في الفرقة الرابعة طب بشري، وبنت لازالت في أول صيدلة، عائلته ثرية، يحب السفر كثيرًا من خلال المؤتمرات والندوات الطبية، لا يرد أي شخص يلجأ إليه سواء بنصيحة أو أموال كسلفيات لا ترد في الغالب.

وقفت أنتظر كيف سيبلغهم الخبر؛ لم يخب ظني، حاول تلطيف وقع الأمر على ذويها، لكن الأم صرخت وسقطت على الأرض تخبط بيديها على رأسها، تبكي

وتنوح منادية على ابنتها التي لم تفرح ببيتها الجديد، عروس لم يمر سوى ثلاثة أشهر على زواجها.

والدها يبدو أكثر تماسكًا، جلس يدعو لها بالرحمة والمغفرة، تركنا دكتور "قدري" لاستكمال الإجراءات مع ابن عم للمتوفاة، تجرأت وسألت: "أين زوجها؟!"، تبرع والدها يجيبني وصوته يقطر حزنًا:

– في الخليج، سافر من شهرين، كيف سنبلغه أن أمانته لدينا قد رحلت إلى بارئها؟، كيف سنخبره أن الله قد استرد وديعته وما تحمله في بطنها؟.

بكل هدوء استطعت ادعاءه سألت ثانية وعيني تتابع بحده صقر: "لماذا انتحرت؟!" فزع الوالدان، نظرت أمها نحوي نظرات وجلة دون أن تهمس بحرف، أما والدها فظل لثوان يحرك رأسه غير مُصدق لما قلته يتمتم بما لا أسمعه ثم أجابني بهدوء عاصف:

– أعوذ بالله، أعوذ بالله، لم تنتحر ما تقولينه حرام وافتراء هي بين يدي الجبار، كانت تنظف الدوار، أرادت أن تروي عطشها؛ فشربت من إناء نضعه جوار شباك يطل على أرض خالية جوارنا، بعدما شربت رأت في الماء نمل، وهو ما تخاف منه بشده، فَهرِعَت إلى غرفة التخزين وتناولت مبيدًا حشريًّا لتقتل النمل كما أخبرت أختها الصغيرة "أمينه"، خرجت على صوت صراخها من غرفتي مع زوجتي عندما رأت "سوسن" مرتمية على الأرض تتشنج ويخرج من فمها زبد أبيض، فأخبرتني بما فعلت المسكينة.

حاولت إسعافها وجعلتها تشرب ماءً بملح ولكنها ظلت تتقيأ فخرجت وأحضرت "صميدة" ابن عمها لينقلها معي إلى المستشفى بعربته النقل، لم تنتحر ماتت بسبب النمل.

رفعت حاجبي دهشة، لم أستطع إخفاء تفاجئي من غباء البنت المسكينة، البعض يموت بسبب الحرارة القاتلة خارج المستشفى، والبعض بسبب الإرث أو الانتقام، أما أن تموت إحداهن بسبب النمل فهذا هو الجديد والغريب.

أبقينا على الجثمان حتى يصل وكيل من النيابة لمعاينته، والتأكد من أن الأمر ليس جنائي، رفض والدها التشريح، ولم تعترض النيابة فلا شبهة جنائية ولا سبب يدعو لاتهام أي شخص بأنه قد تخلص منها بالمبيد الحشري.

خرج تقرير الطبيب الشرعي بأنها حالة وفاة بسبب تناول مبيد حشري بكميات قاتلة أدى إلى الموت، حفظت القضية وصدر الأمر بعد ساعات من الضغط العصبي والتوتر بدفن الجثة، لتنتهي الإثارة.

عدت إلى روتيني الممل، حان موعد انصرافي سأعود إلى البيت وأمارس هوايتي في الطهي، أتفنن في صنع الأكلات المختلفة لأعوض ما أبذلة من مجهود طيلة اليوم.

أجهز عدة أصناف من الحلويات أوزعها على زملائي في اليوم التالي، لعل أحدهم يغريه ما أصنع فيطلب مني الزواج، أو على الأقل يعرفني على أحد معارفه الباحثين عن زوجة ماهرة في أعمال المنزل ولها دخل شهري يساعده على اجتياز مصاعب الحياة وشقائها.

أقدم تنازلات كبيرة بأفعالي تلك أعلم، لكن لا مانع؛ كله فداء البشرية وعدم فنائها، أفكر جديًا في التركيز الفترة القادمة مع دكتور "قدري"، من يدري فكله مقدر ومكتوب؛ ولا أحد يعلم أين يوجد نصيبه.

قرأت صباحًا في جريدة دكتور "قدري" أثناء تناولنا للإفطار سوية بعدما بدأ ينجذب نحوي لطيبة قلبي وروحي المرحة، أن الفتاة التي ماتت منذ شهر بسبب المبيد الحشري، سجل اسمها في موسوعة "جينس" كأغرب حالات الوفاة في مصر عام ٢٠١١م.

انتهت

٢٠١٦

شكر خاص للمراجع

أ/ محمود سيد أبوضيف

إصدارات سابقة

مجموعة قصصية "روح وجسد"– دار أكد للنشر والتوزيع ٢٠١٤.

رواية "شهرنان"– دار غراب للنشر والتوزيع ٢٠١٥.

رواية "على الجانب الآخر"– دار الوليد ٢٠١٦.

رسائل "ماذا لو؟!"– دار جولدن بوك ٢٠١٧.

مجموعه قصصية "موت على قيد الحياة"– دار جولدن بوك ٢٠١٨.

رسائل "يا أنت.. أنا" – الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١٨.

رواية "ما وراء الخلود– الكونتيسة"– دار بيوند للنشر الالكتروني ٢٠١٩.

الفهرس